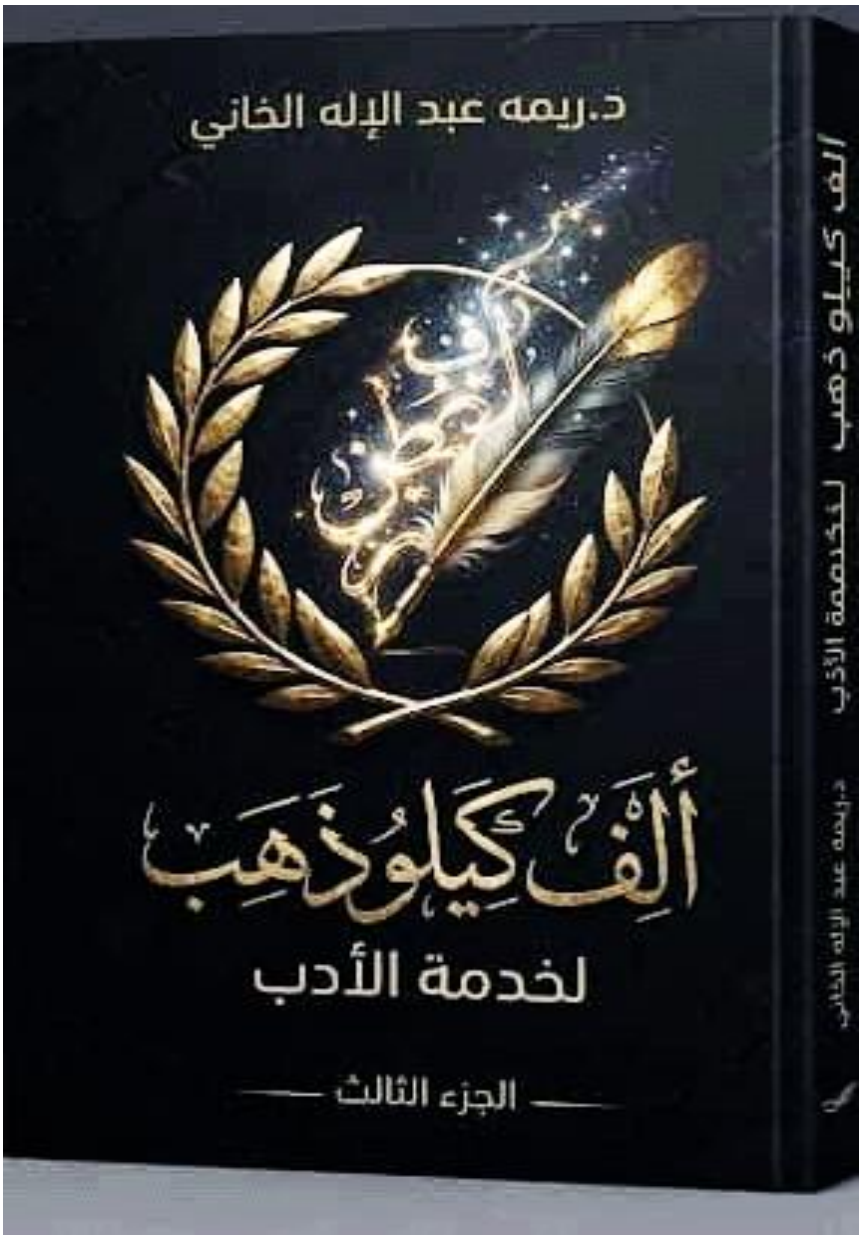
د.ريمه عبد الإله الخاني
ألف كيلو ذهب
لخدمة الأدب
الجزء الثالث
ألف كيلو ذهب لخدمة الأدب
د.ريمه عبد الإله الخاني

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ألف كيلو ذهب لخدمة الأدب

د. ريمه عبد الإله الخاني

مختارات بحثية

الجزء الثالث

مقدمة

في هذا الجزء كان حظ المهارات الحياتية وافيا، حيث انعكست على التحصيل العلمي والسلوك المعرفي، وفيه ظهرت الإيجابيات والعلل التي عانينا منها وأغمضنا العيون عن حلها سواء لتقاعس منا، أو لحيرة في معرفة الحل، وفي الحالين فبعد فوات الوقت يصبح تغييرها وتطويعها الأمور كإزاحة جيل جليدي لايذوب إلا رغما.فانتهز فرصة الإسمنت الطري لتحدث التغيير المناسب قبل الندم.

تنقسم المجموعة إلى ثلاثة أقسام غير منفصلة:

قسم أبحاث أدبية تعليمية، وأبحاث دينية اجتهادية تفسيرية، وقسم نفسي واجتهادي اعتمادا على ظواهر واقعية،نعتبرها جهدا قد يصيب وقد يخطئ، دعوة للنقاش وجذب الآراء وإكمال العمل.

أما الهوامش فانقسمت قسمين: قسم تتابعت وارتبطت مع بعضها ترقيما في هوامش الصفحات، نظرا للتتابع البحث زمنيا، وبعضها كان جهدا مستقلا بعيدا عن المؤتمرات، آثرنا ألا نعبث بتغييره لاعتبارات خاصة، ويبقى وضع المصادر والمراجع آخر كل بحث أمرا يهم الباحث والطالب كما رأينا.

نتمنى أن تكون المجموعة البحثية مفيدة للباحثين والطلبة.[1]

[1] الحقوق محفوظة، 2027م

هَذِهِ السَّبِيكَةُ الذَّهَبِيَّةُ

محمد جمال صقر[2]

كلية دار العلوم (جامعة القاهرة)

أولَ ما قرأتُ ما اجتمع في هذا الكتاب من المقالات التثقيفية المختلفة المؤتلفة، للكاتبة العزيزة الدكتورة ريمة عبد الإله الخاني، خطر لي قولُ رسول الله –صلى الله عليه، وسلم!–: "خَيْرُ النَّاسِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ"، من حيث حرصَت الكاتبة على تيسير كل ما ظهرَتْ لها منفعتُه من مقالاتها المنشورة على منابر النشر المختلفة، مجموعًا للقراء في كتاب واحد، يمكِّنهم من معادن هذه السبيكة التثقيفية الواحدة، ويوفر عليهم عناء البحث عن متفرقاتها – ومن حيث حرصَت الكاتبة أيضا في كثير من هذه المقالات على الدخول إلى معالجة موضوعاتها من تأمل عبارة مأثورة كهذه العبارة التي خطرت لي الآن "خَيْرُ النَّاسِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ"؛ فهي تَذْكُرها، وتذهب في تأملها كل مذهب يستنبط للقارئ كل ما استحسنَتْه له من كنوز الثقافات الإنسانية المختلفة.

وألطفُ ما عثرتُ عليه في الجزء الثالث من هذا الكتاب ذي ثلاثة الأجزاء، وأطرفُه، مقالها "منهجية كتابة تقديم الكتب"، الذي وازنَتْ فيه بين تقديم الكتب ودراستها، وعالجت تَحَرُّجَ

[2] باحث وعروضي وعضو موقع فرسان الثقافة ومجموعاته الواتسية.

مُقدِّميها الذي ينبع كثيرا من التباس التقديم عليهم بالدراسة؛ فقد قرأت هذا المقال قبل إعدادي هذا التقديم، وتبسَّمتُ لما فُرِق للكاتبة عنه فيه من أفكار، ورجوت أن أُوفَّق إلى مخالفة تَوقُّعها!

لقد عرفتُ الكاتبة العزيزة من زمان طويل، مؤسسةً تثقيفية نشيطة، "مؤسِّسة" بكسر السين، دلالة على تكوينها لكثير من الكيانات الثقافية– و"مؤسَّسة" بفتح السين، دلالة على همتها العالية التي يستشعرها كل من سمع وصف كاتب كبير بأنه هو وحده في نفسه مؤسسة تثقيفية تمشي على الأرض!

عرفتُ الكاتبة العزيزة بما صنعته لنا يدُها الصَّناع من صنائع شبكية وتواصلية، ووقفتُ على أصالة نشأتها في عائلة عريقة، ونبالة رعايتها لأسرة كريمة، وجلادة قيامها على أعمال ثقيلة، ورفعة تواضعها لأعمال تبدو للمتعجّلين خفيفة، وهي عند المتأنّين عظيمة، وبحسبي أن أنوه بحرصها الدائم –وهي المتعددة المواهب– على تعريف نفسها بأنها كانت مدرسة ابتدائي!

سيدتي الكاتبة العزيزة،

إن الذي أفهمه من هذا التدريس الابتدائي، إنما هو التأسيس التأصيلي، الذي يحفر في الوعي الباطن ما لا يَمَّحي على الزمان، من علوم ومعارف وخبرات وأقوال وأفعال وإقرارات، أصلها ثابت في قلب هذه الحضارة العربية الإسلامية، وفرعها شامخ في سماء العمران الإنساني.

بارك الله لك وفيك، ونفع بك البلاد والعباد!

محتويات المجموعة البحثية

مقدمة.....3

تقديم.....4

محتويات.....6

1–الطريق للحفظ المتين، ريتشارد فانيمان مثالا.....8

2– أزمة الانقطاع المعرفي لدى الخريجين.....33

3– بين التوازن المنهجي وروح المغامرة.....41

4– سيكولوجية التخفي 54

5–منهجية كتابة تقديم الكتب.....62

6–مثلث الهدر الإنساني والحضاري في الهدي النبوي 72

7– آفة الهدم بعد الإحكام.....85

8– بنية الشخصية الباطنية الملتفة.....102

9–دراسة في فقه الاستعانة.....112

10–أزمة التعريب والازدواجية اللغوية.....125

11–دراسة نقدية ونفسية في سيكولوجية الإبداع.....132

12–جدلية التواضع الضمني والعزلة الظاهرة.....146

13–أنواع البشر في البوح.....152

14–المنظومة الأمنية المتكاملة لتأمين الاجتماعات السياسية.....170

15– فقه الخلاف الأسري وبناء المودة بين الأبناء.....180

16–تحولات التشويش الفكري 199

17– جدوى المنابر الواقعية والمنصات الرقمية في خدمة الباحث والأديب.....211

1- الطريق للحفظ المتين 1و2

ريتشارد فاينمان مثالا[3]

❖ ❖ ❖

مدخل

[3] قدمت عبر دورات جامعة الحكمة ومنابر رقمية عديدة.وهي موجودة تسجيلا في قناتنا اليوتوبية:
https://www.youtube.com/@rimaalkhani1097

من الطبيعي جدا أن يبحث أي حافظ طالبا كان أم مهتما ، أوحافظا للقرآن، أو حتى إعلاميا يهمه أن يكون متقنا وناجحا في مهمته، عن أسهل وأجدى طريقة للحفظ، ورغم تشعب الطرق وتعددها، إلا أن هناك خطوطا عامة يمكننا السير خلالها لاختبار مقدرتنا وقدراتنا، وإمكاناتنا، والطرق التي تناسب ذاكرتنا. فمن هنا يبدأ الطريق، لذا كانت هذه المحاضرة. لعرض مايمكن عرضه من طرق وأسباب عدم الإتقان، لمساعدة طالبنا العزيز بقدر الإمكان.

مشكل البحث: ماهي الطريقة المثلى للحفظ؟

1-أهمية بحث الطلاب عن طريقة تقصر الطريق للحفظ وتجعله أكثر جدوى.

2- اهتداء الحافظ لطريقة تناسب ذاكرته.

هدف البحث:

1-إرشاد الحافظ على طرق الحفظ، وومعرفته ماينا سب.

2- تحليل مشكلة عدم ثبات الحفظ.

منهج البحث:

تحليلي استقصائي، ويعتمد التحليل طريقة :

1-سوق الأدلة لرفع مستوى الحفظ.

2- وتذليل الصعاب التي تعيق الطالب عن الحفظ المتين.

3-تجاوز المشكلات التي تسبب للطالب الإحباط.

مطالب البحث

1-مشكلات الطلبة مع الحفظ.

2- حلول ومقترحات لحفظ أفضل.

3- شرح نظرية ريتشارد فاينمان.

3- مستخلص.

1-مشكلات الطلبة مع الحفظ.

أولا وقبل حصر المشكلات لنتفهم أمورا مهمة وهي:

1- لا توجد نسبة مئوية محددة علمياً تقيس "قوة الذاكرة" لدى الإنسان بشكل عام. الذاكرة ليست مخزناً محدوداً يمكن احتساب النسبة المئوية للمستغل منه، بل هي شبكة معقدة من الخلايا والروابط العصبية.[4]

2- خرافة الـ 10%: المقولة الشائعة بأن الإنسان يستخدم 10% فقط من قدرة دماغه هي إشاعة عارية من الصحة؛ إذ يثبت تصوير الدماغ الحديث أننا نستخدم 100% من أدمغتنا على مدار اليوم.[5]

---

[4] الجزيرة نت، مقال،2019م، 14 حقيقة يجهلها الكثيرون عن الدماغ البشري.
https://www.aljazeera.net/science/2019/2/3/%D8%A7%D9%84%D8%AF%D9%85%D8%A7%D8%BA-%D8%A7%D9%84%D8%A8%D8%B4%D8%B1%D9%8A-%D8%AD%D9%82%D9%8A%D9%82%D8%A9

[5] محمد ناهض القويز، 2012م، مقال، كم نسبة استخدام المخ؟.
https://www.alriyadh.com/775328

3- **سعة تخزين هائلة** :تُقدر الأبحاث سعة الذاكرة البشرية بنحو **2.5بيتابايت** (أي ما يعادل مليون جيجابايت)، وهي مساحة تكفي لتسجيل فيديو يستمر لمئات السنين[6].

4- **منحنى النسيان (إبنجهاوس)** :أثبتت الدراسات أن الإنسان ينسى في المتوسط حوالي **56% من المعلومات الجديدة** بعد ساعة واحدة فقط من تعلمها، ويصل النسيان إلى حوالي **79% بعد شهر** ما لم يتم مراجعتها وتكرار [7]

5- **محدودية الذاكرة قصيرة المدى** :تستطيع الذاكرة المؤقتة الاحتفاظ بمتوسط **7معلومات فقط** (مثل أرقام الهواتف) ولمدة لا تتجاوز **30ثانية** قبل أن تتلاشى أو تنتقل للذاكرة طويلة المدى [8]

بكل الأحوال يهمنا رصد أهم المشكلات الحفظية محاولين الوقوف على العلات التي تمنع من نجاح الحفظ:

أ-مشكلات حفظية:

---

[6] د. سوراف مهروترا، الهند، مقال 2026م، ما هي سعة الذاكرة لدى الدماغ البشري؟.(نصيحة الدكتور: إذا كنت تشعر بضعف في التركيز، يمكنك تحسين أداء ذاكرتك عبر النوم الكافي، والتغذية السليمة، وممارسة الرياضة).
https://www.medanta.org/ar/patient-education-blog/what-is-the-memory-capacity-of-a-human-brain

[7] الباحث غوركان سويكان، مقال، 2026م، منحنى النسيان لإبينغهاوس: الأدلة والبيانات وكيف تتغلب عليه.موقع فلاش كادي فاي.
https://www.flashcardify.me/ar/blog/ebbinghaus-forgetting-curve

[8] الصيدلانية رنا مراد، مقال، 2024م، كم معلومة يستوعبها العقل في الدقيقة. موقع طبي.
https://altibbi.com/%D8%A7%D8%B3%D8%A6%D9%84%D8%A9-%D8%B7%D8%A8%D9%8A%D8%A9/%D8%A7%D9%85%D8%B1%D8%A7%D8%B6-%D8%A7%D9%84%D8%A7%D8%B3%D9%86%D8%A7%D9%86/%D9%87%D9%84-%D9%8A%D9%88%D8%AC%D8%AF-%D8%B9%D8%AF%D8%AF-%D9%85%D8%B9%D9%8A%D9%86-%D9%85%D9%86-%D9%8A%D8%B3%D8%AA%D8%B7%D9%8A%D8%B9-%D8%A7%D9%84%D8%B9%D9%82%D9%84-%D8%A7%D9%86-%D9%8A%D8%B3%D8%AA%D9%82%D8%A8%D9%84%D9%87%D8%A7-%D9%81%D9%8A-1781287

تعتبر مشكلة الحفظ عند الطلاب بشكل عام مشكلة عامة ، مازالت تعتبر عائقا دون وصول الطالب لمبتغاه خاصة في فروع الجامعات التي ينشد الطالب الدخول لعلم ما لايستطيع الوصول إليه فيدرس مرغما ماحصل عليه فحيبه رغما لأنه سيكون مصدر رزقه مستقبلا وللنساء قدوة لأبنائها إن لم تعمل. عموما لن نقدم حلا سحريا فقدر الله قد يكون فيه حكمة كبيرة ، هذا يجب أن نسلم به، لذا نعتبر مانحاول الوصول إليه مساعدة بقدر الإمكان لطالبنا العزيز للوصول لأفضل النتائج من خلال قدراته الحفظية المحدودة.

ولو فصّلنا تلك المشكلات لظهر لنا أسبابا عديدة:

1.مشكلات متعلقة بأسلوب المذاكرة

- **الاعتماد على الحفظ البصم (التلقين)** :محاولة حفظ الكلمات بنصها ودون استيعاب الفكرة العامة، مما يجعل استرجاعها صعباً إذا نُسيت كلمة واحدة.
- **غياب التكرار المتباعد** :مراجعة المعلومة لمرة واحدة فقط يوم الامتحان، بدلاً من توزيع المراجعة على فترات زمنية متباعدة لتثبيتها في الذاكرة طويلة المدى.
- **إهمال التطبيق والحل** :التركيز على قراءة النص مراراً وتكراراً دون اختبار النفس عبر حل الأسئلة والامتحانات السابقة.

2-مشكلات نفسية وجسدية

- **القلق والتوتر الدراسي** :الخوف من الامتحانات يفرز هرمونات تؤثر سلباً على عمل الدماغ وقدرته على تخزين واسترجاع المعلومات.

- **الإرهاق وقلة النوم** :النوم هو المرحلة التي يقوم فيها الدماغ بترتيب وتثبيت المعلومات، وقلة النوم تضعف الذاكرة بشكل مباشر.

- **التشتت وضعف التركيز** :المذاكرة في محيط مليء بالمشتتات (مثل الهواتف الذكية أو الضوضاء) تمنع انتقال المعلومة إلى الذاكرة العميقة.

3- مشكلات تنظيمية

- **تراكم المواد الدراسيّة** :ترك المناهج حتى اللحظات الأخيرة قبل الامتحانات، مما يضطر الطالب لمحاولة حشو كميات هائلة من المعلومات في وقت قصير جداً.

- **عدم ربط المعلومات** :دراسة الأفكار كأجزاء منفصلة معزولة بدلاً من ربطها بخلفيات معرفية سابقة أو بأمثلة من الواقع العملي.

سألت طالبة موقع إسلام أون لاين عن طريقة للحفظ ومعاناتها في ذلك فجاء الرد من الدكتور مأمون المبيض:

-يقول الشاعر: والنفسُ كالطفلِ إن تتركهُ شبَّ على... حُبِّ الرضاعِ وإنْ تَفْطِمْهُ يَنْفَطِم.

وفي الواقع ليس هناك طريقة واحدة للدراسة تناسب كل الطلاب، فظروف كل طالب تختلف عن الآخرين، والأعمال والمسؤوليات مختلفة، والوقت المتاح أيضا مختلف، وما يناسب طالبا ليس بالضرورة يناسب طالبا أخر، وربما هناك بعض الملاحظات العامة والتي تفيد الجميع، ومنها على سبيل المثال:

• لا تستقلي قيمة أي وقت مهما قصرت مدته، فأحيانا في الربع ساعة يمكن أن تحققي ما هو بقيمة ساعة أو ساعتين.

• استفيدي مما يسمى "نوافذ الوقت"، وهي الفترات الصغيرة بين عمل وآخر، فمثلا وقت الفراغ بين نشاط وآخر، فهذه الأوقات القصيرة يصبح مجموعها الوقت الطويل من خلال الزمن.

• إذا كنت من النوع الصباحي، أي أنك أنشط ما تكوني في فترة الصباح، فاستغلي وقت الصباح في الأعمال التي تتطلب جهدا ذهنيا، وكما يقول الرسول الكريم: "بورك لأمتي في بكورها" أي فترة الصباح الباكر، وإذا كنت من النوع المسائي، فأيضا استفيدي من هذه الساعات في المساء بالشكل المناسب.

• حاولي أن تقللي قدر الإمكان من مضيّعات الوقت، كالوقت الذي تقضيه على الإنترنت، ووسائل التواصل الاجتماعي.

• حاولي أن تجمعي بين عملين معا، فيمكنك مثلا أن تراجعي حفظ بعض الآيات القرآنية، أو غيرها مما تريدين حفظه، وأنت تقومين بعمل آخر كارتداء الملابس، أو العمل في إعداد الطعام، أو الذهاب في الباص.

• لا بد أن تعطي فرض الواقع حقه، ففي وقت الصلاة أفضل ما تقومي به هو الصلاة، ووقت الدراسة الاختبار هو الأفضل، وهكذا.[9]

ماورد سابقا يمكننا عده محاولة إيجابية للوصول للحفظ المريح دون قلق ومتاعب، وباختصار

خلاصة:

[9] د. مأمون مبيض، 2017م، مقال، مشكلتي في الحفظ والدراسة، فما توجيهكم لي؟ إسلام أون لاين.
https://www.islamweb.net/ar/consult/2327046/%D9%85%D8%B4%D9%83%D9%84%D8%AA%D9%8A-%D9%81%D9%8A-%D8%A7%D9%84%D8%AD%D9%81%D8%B8-%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%AF%D8%B1%D8%A7%D8%B3%D8%A9-%D9%81%D9%85%D8%A7-%D8%AA%D9%88%D8%AC%D9%8A%D9%87%D9%83%D9%85-%D9%84%D9%8A

من لم يتعود على قراءة كتاب كامل، أو القيام بعمل من أوله لآخره، أو الالتزام بأي شيء وقع على عاتقه وأحس بمسؤولية ذلك ، فليبدأ وينوي فالنية والعزم على القيام بما ورد فيها، نصف العمل، فمادمنا أحياء فنحن نستطيع بإذن الله.

2-ماسبب نسيان الطالب لما حفظه بسرعة؟

هناك عدة عوامل تجعل الطالب ينسى ما حفظه من دروس، وتعتبر **مشكلات داخلية** تخص الطالب:

1-التوتر والحفظ

من أكثر الأسباب شيوعا وراء نسيان الطلاب وجودهم تحت الضغط والتوتر من أجل حفظ المعلومات.

2-تغير طريقة التخزين والسؤال

يعاني بعض الطلاب من مشكلة مراجعة الدرس بشكل معين، وعند السؤال في الامتحان عن الشيء نفسه بشكل آخر، لا يتمكنوا من استحضاره تماما، حيث يعمل الطلاب في هذه الحالة على حفظ النص المكتوب.

3-اختلاط المعلومات

تداخل بعض المعلومات التي يذاكرها الطالب حاليا مع المعلومات التي قام بمذاكرتها سابقا.

4-الازدحام العقلي

لا يمنع ازدحام العقل من الذاكرة بشكل سليم فحسب، بل يحول أيضا دون التعلم واكتساب معلومات إضافية.

5-كما تؤدي مشاهدة التلفاز ووجود أصوات من أفراد العائلة والتوتر من المشكلات الشخصية وغيرها إلى ضعف القدرة على التركيز واسترجاع المعلومات.

6-عدم استخدام المنهج

في بعض الأحيان، يأتي النسيان نتيجة عدم استخدام المعلومات أو عدم الاحتياج إليها بعد سماعها أو رؤيتها، الأمر الذي يحتاج إلى ربط هذه المعلومات بالواقع وتشجيع الطلاب على استخدامها وتكرارها.

7-نقص الانتباه

يعاني بعض الطلاب من مشكلة نقص الانتباه، والتي تحتاج إلى زيارة الطبيب في بعض الحالات، إلا أن العقل يفعل ما يؤمر به في أمورة عديدة، فإذا كان الشخص غير متحمس للمذاكرة، فإنه يخبر عقله بشكل غير مباشر بإمكانية النسيان .[10]

-مشكلات خارجية وغير ذلك :

1- العوائق الإبستمولوجية (المعرفية)

-هذه العوائق تكمن في طبيعة المعرفة نفسها وكيفية تشكلها في ذهن الطالب.

-التمثلات الخاطئة: أفكار مسبقة "مغلوطة" يختزنها الطالب وتمنعه من تقبل الحقيقة العلمية الجديدة.

-العائق اللغوي: استخدام مصطلحات معقدة أو لغة لا تناسب المستوى الإدراكي للطالب.

-التعميم المتسرع: محاولة الطالب تطبيق قاعدة تعلمها في سياق معين على كل السياقات بشكل خاطئ.

---

[10] سمية سعادة، 2024م، 6 أسباب تجعل الطالب ينسى الدروس التي حفظها.موقع الشروق.
https://www.echoroukonline.com/6-%D8%A3%D8%B3%D8%A8%D8%A7%D8%A8-%D8%AA%D8%AC%D8%B9%D9%84-%D8%A7%D9%84%D8%B7%D8%A7%D9%84%D8%A8-%D9%8A%D9%86%D8%B3%D9%89-%D8%A7%D9%84%D8%AF%D8%B1%D9%88%D8%B3-%D8%A7%D9%84%D8%AA%D9%8A-%D8%AD%D9%81

2. العوائق البيداغوجية (التعليمية)

تتعلق بـكيفية التدريس والمنظومة التعليمية، وهنا تقع المسؤولية على المعلم والمنهج.

-جمود المناهج: تقديم محتوى نظري جاف لا يربط العلم بالواقع المعيشي للطالب.

-إغفال الفروق الفردية: التدريس بنمط واحد (One-size-fits-all) يتجاهل اختلاف سرعات التعلم وأنواع الذكاءات.

-طرق التقييم التقليدية: التركيز على الحفظ والاستظهار بدلاً من الفهم والتحليل، مما يولد رهبة من الخطأ.

3. العوائق السيكولوجية (النفسية)

-تتعلق بالحالة الانفعالية للطالب، وهي المحرك الأساسي لعملية التعلم.

-فقدان الدافعية: شعور الطالب بأن ما يتعلمه لا قيمة له في حياته المستقبلية

-قلق الامتحان: الضغط النفسي الذي يشل القدرات الذهنية لحظة الاختبار

-انخفاض تقدير الذات: اعتقاد الطالب بأنه "فاشل" أو "غير ذكي"، وهو ما يتحول إلى نبوءة ذاتية التحقق.

4. العوائق الاجتماعية والبيئية

-وهي الظروف المحيطة التي قد لا يملك الطالب سلطة عليها.

-المستوى السوسيو-اقتصادي: نقص الوسائل التعليمية أو سوء التغذية أو ضيق المساحة في المنزل.

-المناخ الأسري: المشاحنات العائلية أو قلة الدعم والتحفيز من الوالدين.

-البيئة المدرسية المادية: نقص التجهيزات، الاكتظاظ، أو حتى ضعف الإضاءة والتهوية.[11]

2- حلول ومقترحات لحفظ أفضل.

قبل إيراد المقترحات، يمكننا القول:

-إن إجادة الحفظ المتين، يعتبر مهارة إتقان، واهتمام وتركيز، مهما كانت الذاكرة حديدية أو متوسطة المدى:

تنقسم الذاكرة البشرية أساساً إلى ثلاثة أنواع رئيسية بناءً على مدة الاحتفاظ بالمعلومات ووظيفتها.

أ-أنواع الذاكرة البشرية

- **الذاكرة الحسية:(Sensory Memory)**
  - تستقبل المعلومات من الحواس الخمس.
  - تحتفظ بالمعلومات لشكلها الخام لمدة لا تتجاوز ثانية إلى ثانيتين.
  - تساعدنا على نقل وانتباه التفاصيل المهمة فقط من العالم الخارجي

الذاكرة قصيرة المدى:(Short-term / Working Memory)

[11] خالد سامح، كلية نوتنج هيل البريطانية عاصمة التدريب و التطوير المهني،عوائق التعلم وصعوباته في علوم التربية واستراتيجيات فعالة لتجاوزها وتحسين التحصيل الدراسي.
https://www.nottinghillcollege.me/post/%D8%B9%D9%88%D8%A7%D8%A6%D9%82-%D8%A7%D9%84%D8%AA%D8%B9%D9%84%D9%85-%D9%88%D8%B5%D8%B9%D9%88%D8%A8%D8%A7%D8%AA%D9%87-%D9%81%D9%8A-%D8%B9%D9%84%D9%88%D9%85-%D8%A7%D9%84%D8%AA%D8%B1%D8%A8%D9%8A%D8%A9

- تُعرف أيضاً بالذاكرة العاملة التي تعالج المعلومات الفورية.
- تحتفظ بعدد محدود من الوحدات (حوالي 7 وحدات) لمدة تصل إلى 30 ثانية.
- تزول المعلومات منها بسرعة ما لم يتم تكرارها أو نقلها للذاكرة طويلة المدى.

الذاكرة طويلة المدى:(Long-term Memory)

- تخزن كميات هائلة من المعلومات والمعارف لفترات طويلة قد تدوم طوال العمر.
- تنقسم إلى **ذاكرة صريحة** (تذكر واعٍ للأحداث والحقائق) و**ذاكرة ضمنية**)مهارات وحركات تلقائية مثل قيادة الدراجة. [12]

ب-الحفظ في القرآن والسنة

لقد كانت العرب أمة أمية على معظمها لا تجيد الكتابة فكان الصدر محل الحفظ ومن الطبيعي بعد انتشر العلم وتطور أساليب الكتابة توجه الكثير من الناس إلى الاعتماد على كتابة كل ما يسمعونه،ومن الطبيعي بعد انتشر العلم وتطور أساليب الكتابة توجه الكثير من الناس إلى الاعتماد على كتابة كل ما يسمعونه أو يحفظونه على الأوراق، وقد تسبب هذا في إخماد دور العقل إلى حد ما، في حفظ المعلومات تدريجيًا حتى أصبح المحفوظ قليلًا والمكتوب كثيرًا، هذا أولا.

2-لا شك أن التكنولوجيا الحديثة أثرت تأثيرًا واسعة على العقول في جانب الحفظ، فقد أصبح الوصول إلى المعلومات أكثر سهولة وأسرع من ذي قبل، وهذا أيضًا ساعد على إخماد دور العقل في حفظ

---

[12] موقع مسار للأبحاث:2024م،أنواع الذاكرة البشرية.
https://masarresearch.com/%D8%A3%D9%86%D9%88%D8%A7%D8%B9-%D8%A7%D9%84%D8%B0%D8%A7%D9%83%D8%B1%D8%A9-/%D8%A7%D9%84%D8%A8%D8%B4%D8%B1%D9%8A%D8%A9

المعلومات، فأصبح لسان حال الإنسان المعاصر؛ لِمَ أحفظ وعندي الإنترنت يُخرج إليّ المعلومات في بضع ثوانٍ!

3- كثرة تعرض الإنسان لكميات كبيرة من المعلومات المختلفة في وقتٍ واحد، وهذا مما يسبب تشتت للعقل البشري، فمن المعلوم أن حفظ الكثير من المعلومات مترابطة الموضوع أيسر على العقل من حفظ القليل من المعلومات المختلفة، فكيف بالكثير!

-مثال حديث عن المشتتات:

الفيسبوك؛ هذه المنصة الكبرى والتي يستخدمها أكثر من ملياري شخص حول العالم، أصبح مستخدم الفيسبوك من أكثر المتعرضين للتشتت العقلي، فكل من استخدم الفيسبوك يعلم أنك بمجرد تصفحك للموقع تجدُ أمامك العديد من الموضوعات التي تحوي الكثير من المعلومات أبرزها في (الكرة والتكنولوجيا والطبخ وعلم النفس والاجتماع والدين وغيره)، فكلما شاهد المستخدم معلومة في موضوع ما، كان مآلها إلى الذاكرة قصيرة المدى فتحتفظ هذه الذاكرة بالمعلومات لفترات ما بين 30 ثانية وحتى دقائق معدودة ثم تذهب عن العقل، ثم يتلقى معلومة أخرى في موضوع أخر مختلف فتكون كسابقتها من المعلومات، ومع كل هذه الأعداد الضخمة من المعلومات المختلفة فمن المحال أن يستطيع العقل حفظها لفترة طويلة.[13]

[13] محمود حسين ، 2012م، مقال، مَلَكَة الحفظ.. ما بين السلف والخلف. مدونات الجزيرة.
https://www.aljazeera.net/amp/blogs/2018/6/25/%D9%85%D9%84%D9%83%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%AD%D9%81%D8%B8-%D9%85%D8%A7-%D8%A8%D9%8A%D9%86-%D8%A7%D9%84%D8%B3%D9%84%D9%81-%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%AE%D9%84%D9%81

وفي النهاية فلو نظرنا إلى حال السلف وقارنه بحال الخلف سنعلم جيدًا الفرق الكبير بينهم، وعلى الرغم من تقدم الخلف على السلف في العلوم، فقد استطاع السلف مع ضعف السبل وقلة الإمكانيات أن يتفوقوا على الخلف في العديد من الأشياء منها "ملكة الحفظ" فهذا مما لايستطيع عاقل أن ينكره.

ولقد حوى القرآن الكريم دليلا عاما للحفظ يمكننا اعتباره خط عام ، ومن ثم تشغل الظروف المتغيرة الحيز اللاحق لذلك.

أ –منهج القرآن الكريم في الحفظ:

في القرآن الكريم، لا توجد آيات تذكر "خطوات علمية" أو "طريقة تقنية" مفصلة لحفظ النصوص (مثل التكرار أو الكتابة)، ولكن القرآن الكريم أرشد إلى الأسس النفسية والروحية والذهنية التي تعين الإنسان على الحفظ، وتثبيت العلم، وتقوية الذاكرة.

أهم الآيات التي تبين القواعد الأساسية لتسهيل الحفظ واستيعاب العلم:

1. الاستعانة بالقرآن والتدرج في التلقي القاعدة: الحفظ يحتاج إلى التدرج وعدم الاستعجال، وقراءة النص وتقسيمه تسهل استيعابه.

الآية: قال تعالى: «وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا» (الإسراء: 106).

فالتثبيت يأتي بالتأني والتقسيم ("على مُكث").

2. التكرار والمتابعة لعدم النسيان القاعدة: مراجعة المادة بانتظام وتكرارها هي الطريقة المثلى لعدم تفلتها.الآية: قال تعالى: «سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ» (الأعلى: 6)، فالإقراء المتتالي والتكرار يضمن رسوخ المحفوظ

3. تقوى الله والابتعاد عن المشتتات القاعدة: تصفية الذهن من المعاصي والمشتتات تزيد من قدرة العقل على التركيز واستقبال المعلومات.الآية: قال تعالى: «وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ» (البقرة: 282).

4. وقد صاغ الإمام الشافعي هذا المعنى في بيته الشهير:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي= فأرشدني إلى ترك المعاصي.

5. كثرة ذكر الله لتنشيط الذاكرةالقاعدة: الغفلة تسبب النسيان، والذكر يجدد نشاط الخلايا الذهنية ويعيد التركيز.

الآية: قال تعالى: «وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ» (الكهف: 24).

الدعاء وطلب الفهم والتيسيرالقاعدة: الحفظ موهبة وتوفيق من الله، واللجوء للدعاء يفتح مغاليق الفهم.

الآيات:قال تعالى: «وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا» (طه: 114).

وكان من دعاء موسى عليه السلام: «رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي» (طه: 25-27).

ب- قضية الحفظ في السنة المطهرة:

من فضائل حفظ واستظهار الأحاديث النبوية :

روى الترمذي (2658) عن عبد الله بن مسعود، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: (نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها وحفظها وبلغها، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه.

ورواه البزار (3416) عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ، عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: (نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَحَفِظَهَا فَأَدَّاهَا كَمَا سَمِعَهَا) [14]

ففي هذا الحديث : الدعاء أو الإخبار من النبي صلى الله عليه وسلم بحصول النضرة لمن حفظ الحديث وبلغه كما حفظه .

وأما معنى النضرة .

"فالنضرة هي الحسن والرونق .

وعن أبي موسى الأشعري : عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : (مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنْ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتْ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتْ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتْ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ) .[15]

فقَسَّم الرسول صلى الله عليه وسلم الناس ثلاثة أقسام : قسمين محمودين ، وهما العالم الفاهم الذي يعلم الناس ، والحافظ للعلم الذي يبلغه غيره .

وقسم مذموم وهو من لا نفع فيه .

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله :

"شَبَّهَ السَّامِعِينَ لَهُ بِالْأَرْضِ الْمُخْتَلِفَة الَّتِي يَنْزِل بِهَا الْغَيْث ، فَمِنْهُمْ الْعَالِم الْعَامِل الْمُعَلِّم . فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الْأَرْض الطَّيِّبَة شَرِبَتْ فَانْتَفَعَتْ فِي نَفْسهَا وَأَنْبَتَتْ فَنَفَعَتْ غَيْرهَا .

---

[14] في "صحيح الجامع" (2309)،

[15] رواه البخاري (79) ، ومسلم (2282)

وَمِنْهُمْ الْجَامِع لِلْعِلْمِ الْمُسْتَغْرِق لِزَمَانِهِ فِيهِ غَيْر أَنَّهُ لَمْ يَعْمَل بِنَوَافِلِهِ أَوْ لَمْ يَتَفَقَّه فِيمَا جَمَعَ لَكِنَّهُ أَدَّاهُ لِغَيْرِهِ ، فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الْأَرْض الَّتِي يَسْتَقِرّ فِيهَا الْمَاء فَيَنْتَفِع النَّاس بِهِ ، وَهُوَ الْمُشَار إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ : (نَضَّرَ اللَّه اِمْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَأَدَّاهَا كَمَا سَمِعَهَا) .

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْمَع الْعِلْم فَلَا يَحْفَظهُ وَلَا يَعْمَل بِهِ وَلَا يَنْقُلهُ لِغَيْرِهِ ، فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الْأَرْض السَّبْخَة أَوْ الْمَلْسَاء الَّتِي لَا تَقْبَل الْمَاء أَوْ تُفْسِدهُ عَلَى غَيْرهَا . وَإِنَّمَا جَمَعَ الْمَثَل بَيْن الطَّائِفَتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ الْمَحْمُودَتَيْنِ لِاشْتِرَاكِهِمَا فِي الِانْتِفَاع بِهِمَا ، وَأَفْرَدَ الطَّائِفَة الثَّالِثَة الْمَذْمُومَة لِعَدَمِ النَّفْع بِهَا . وَاَللَّه أَعْلَم" انتهى .

– أن ذلك من سبيل العلم الذي من سلكه سهل الله له به سبيلا إلى الجنة ، ومعلوم ما ورد في فضل طلب العلم ونشره بين الناس .

– أن حفظ الأحاديث واستظهارها ، من صفات العلماء الذين هم ورثة الأنبياء .

– أن في حفظها حفظا للدين ، وصيانة لأصل عظيم من أصوله ، فلولا أن الله سخر العلماء لحفظ الأحاديث لذهبت السنة ، ولذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم : (إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنْ الْعِبَادِ وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ ؛ حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا).[16]

وروى الدارمي (143) عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : " عَلَيْكُمْ بِالْعِلْمِ قَبْلَ أَنْ يُقْبَضَ وَقَبْضُهُ أَنْ يُذْهَبَ بِأَصْحَابِهِ " .

– وكذلك فمن بركة حفظها: السعي في نشرها وتعليمها الناس ، وفي نشرها نشر للعلم ، وإذاعة للسنة .[17]

---

[16] رواه البخاري (100) ، ومسلم (2673).

[17] الأحاديث على عمومهم، منقولة عن موقع الإسلام سؤال وجواب، فضائل حفظ واستظهار الأحاديث النبوية . https://islamqa.info/ar/answers/240606/%D9%81%D8%B6%D8%A7%D9%89%D9%84-%D8%AD%D9%81%D8%B8-

وعليه فقد بات لزاما علينا البحث عن طرق جديدة في الحفظ إضافة لما سبق وليس بمعزل عنه بحال، لجمع شتاتنا في عصرنا الحالي:

3-شرح نظرية ريتشارد فاينمان

ماهي نظرية ريشتارد فاينمان؟

أ-من هو ريتشارد فاينمان؟[18]

-ريتشارد فاينمان هو فيزيائي أمريكي حائز على جائزة نوبل في الفيزياء عام 1965، ويُعتبر من أبرز العلماء الذين جمعوا بين العبقرية العلمية والأسلوب البسيط في الشرح.

لم يكن فاينمان يكتفي بفهم الظواهر الفيزيائية على المستوى الرياضي فقط، بل كان يسعى إلى تبسيطها حتى يستطيع أي شخص عادي فهمها.

وهذا ما جعل طلابه يصفونه بأنه "الأستاذ الذي يجعل الفيزياء ممتعة وواضحة".

ولد فاينمان عام 1918 في نيويورك، واشتهر بمشاركته في مشروع مانهاتن خلال الحرب العالمية الثانية، لكنه لاحقًا أصبح رمزًا للعلم الإنساني المسؤول.

كان يعتقد أن المعرفة الحقيقية لا تأتي من الحفظ، بل من القدرة على الشرح، ومن هنا بدأت فكرته عن تقنية التعلم التي سُميت باسمه لاحقًا.

%D9%88%D8%A7%D8%B3%D8%AA%D8%B8%D9%87%D8%A7%D8%B1-%D8%A7%D9%84%D8%A7%D8%AD%D8%A7%D8%AF%D9%8A%D8%AB-%D8%A7%D9%84%D9%86%D8%A8%D9%88%D9%8A%D8%A9

[18] د. بدر الغامدي، مقال،2026م، ما هي تقنية فاينمان للتعلم؟
https://drasah.com/Description.aspx?id=8910

ب–فلسفة فاينمان في التعلم

كان يؤمن أن الشخص الذي لا يستطيع شرح فكرة ببساطة، لا يفهمها بما يكفي.

فمن وجهة نظره، التعقيد الزائد في اللغة والمصطلحات ليس دليلًا على الفهم، بل على ضعف التواصل.

ولذلك ركّز في مسيرته التعليمية على تطوير طريقة تجعل الطالب يكتشف ثغرات فهمه بنفسه، عبر الشرح والتبسيط، وليس عبر إعادة الحفظ فقط.

تقنية فاينمان (Feynman Technique)

هي منهجية تعلّم وفهم عميق تعتمد على مبدأ تبسيط المعلومات وشرحها بلغة بسيطة بدلاً من الحفظ السطحي.ابتكر هذه الطريقة الفيزيائي الأمريكي الحائز على جائزة نوبل ريتشارد فاينمان، وتنطلق من مقولة أساسية: "إذا لم تستطع شرح الفكرة ببساطة، فأنت لم تفهمها جيداً بعد".

خطوات تطبيق تقنية فاينمان:

تتألف التقنية من أربع خطوات رئيسية تساعد على ترسيخ المعلومات في الذاكرة:

اختيار المفهوم: حدد الموضوع أو القاعدة التي تريد تعلمها وحفظها واكتب عنوانها في أعلى ورقة بيضاء.

الشرح بلغة بسيطة: اكتب شرحاً للمفهوم كما لو كنت تشرحه لشخص مبتدئ أو طفل في العاشرة من عمره، مع تجنب استخدام المصطلحات المعقدة.

تحديد فجوات الفهم: راجع ما كتبته لاكتشاف النقاط التي تعثرت فيها أو عجزت عن تبسيطها، فهذه هي الفجوات الحقيقية في فهمك.

المراجعة والتبسيط النهائي: ارجع إلى المراجع أو الكتب لردم تلك الفجوات، ثم أعد صياغة الشرح بلغة أبسط وأكثر سلاسة حتى يكتمل الفهم.

هـ فوائد تقنية فاينمان في الحفظ والفهم

تحول التعلّم من حفظ مؤقت إلى فهم دائم راسخ في الذاكرة.

تكشف لك بدقة أجزاء المادة التي لم تستوعبها بعد بدلاً من خداع النفس بوهم المعرفة.

تختصر وقتاً طويلاً من إعادة قراءة الكتب بلا فائدة حقيقية.اقرأ دليلاً مفصلاً حول تطبيق الطريقة مع أمثلة عملية عبر فاهم.

ل ـالأسباب العلمية لنجاح التقنية:

الاستدعاء النشط (Active Recall): عندما تشرح المعلومة لنفسك أو لشخص آخر، يجبر دماغك على استدعاء المعلومات من الذاكرة وهذا يعزز تثبيتها بعيداً عن النسيان.

التكرار المتباعد (Spaced Repetition): مراجعة المعلومات بعد فترات زمنية متباعدة تجعلها رسوخاً في الذاكرة طويلة الأمد وليس مجرد حفظ مؤقت.

التعلم بالشرح: شرح المعلومة بصوتك أو كتابتها يحولها من معرفة سلبية إلى فهم فعلي، ويكشف أي فجوات في استيعابك.

بناء روابط عصبية: كل مرة تشرح فيها أو تبسط معلومة يكون دماغك روابط جديدة بين الأفكار مما يجعل الفهم أعمق وأكثر متانة.

تقوية الذاكرة طويلة المدى: الدماغ يصبح قادراً على استدعاء المعلومات بسهولة بعد أيام أو أسابيع بدل أن تتلاشى بسرعة كما يحدث مع الحفظ التقليدي.

الخلاصة (1)

تقنية فاينمان تجعل التعلم ليس مجرد حفظ للمعلومات، بل فهم حقيقي مستدام يضمن لك تذكر ما تعلمته دائماً بطريقة عملية وسلسة.

أسرار للحفظ باستلهام من فاينمان:

1-بعد الاطلاع على عنوان الدرس ضع أسئلة وتابع الدرس هل يجيب عليها ؟

2-لما تتعب أغلق ونم، لكن المخ ماوقف، هو يربط ويشتغل فقط أنت الذي تعبت..ستنهض وتكمل بجدارة.

3-إحكِ ما حفظته لأي أحد ليس ضروريا أن يفهم أنت الآن من يفهم، وستتوقف عن السرد عندما تجد انفصالا وفجوة في الحفظ، وعدم الفهم.

4-اربطه بفكرة النص بأمر تحبه..المخ لايحفظ مجردات فقط يربط..ولما تنام يكمل الربط.

5-عند لحظة التوتر وعند يتوقف الحفظ إلعب..نعم إلعب حتى اللعب يمكنه مساعدتك..ينشط يحرك يجدد ويحفز الدماغ..

والمهم أن تشعر أنك تتعلم من باب الفضول..لا من باب الضغط وضرورة الإنجاز..والحفظ رغما.

4- مستخلص

لايمكن حصر أسباب النسيان أو سوء الحفظ بطريقة محددة وحاسمة، بل يعتبر أصحاب الإرادة يملكون من التحدي مايتجاوز الظروف السيئة، والإمكانات، ومعرفة ماينا سبهم من هدف، لكي يصلوا بأمان، فحتى الحفظ له عدة أنواع استخلصناها مما سلف:

-حفظ فهمي

-حفظ حرفي

-حفظ عام.

ولكل حفظ غرضه ومكانه المناسب، فالحفظ الفهمي لأصحاب الاختصاصات العلمية عموما، فالفهم هنا أهم من الحفظ الحرفي .

أما النوع الثاني: فهو الحفظ الحرفي ويخص الأئمة الدينيين حفظة القرآن، مايلزم من اختصاصات أدبية وإعلامية وخلافه.

الحفظ العام وهو أن تحفظ الخطوط العامة فقط، وهذا يخص المهنين لأنهم يحتفظون بحيز عملي أهم من الحفظ الحرفي، وهو يخص أنواع الأدوات وكل مايخص عملهم.

وأخيرا:

توصيات مهمة:

1-اكتشف نفسك من جديد وتابع ماحفظته قديما وكيف وسجل ماوصلت إليه.

2-جرب واحفظ وانتبه متى تجيد في الحفظ وسجل الطريقة التي أجدت ونجحت معك سابقا.

3- لاتيئس من المحاولة الأولى، فالناجح يملك من الإصرار والإرادة مايكفيه للوصول للهدف.

4- كل أمر يحتاج إلى دربة وتدريب وتكرار، ولن تجدي المحاولة الأولى حتما، لذا لاتتسرع بل استمر فالاستمرار في المحاولات عين النجاح.

أسئلة مذاكرة تجدون الإجابة عنها في متن البحث:

كيف حفظ الصحابة الكرام القرآن رغم أن معظمهم كان من كبار السن؟

وهل يعني مصطلح "نظرية" أنها قابلة للإثبات أو النقض؟

وهل فعلا قد يبتكر كل طالب طريقته الخاصة والتي قد تغدو
و نظرية فيما بعد؟

وهل فعلا من يقرأ كثيرا أوكان مدمنا على القراءة يغدو قادرا أكثر وبقوة على تلخيص ماقرأ وعلى اصطياد الأفكار المهمة الواردة في الكتاب، فيساعده ذلك على الحفظ بسهولة أكثر.؟

وفق الله الجميع.

مصادر ومراجع

1- مقال،2019م، 14 حقيقة يجهلها الكثيرون عن الدماغ البشري. الجزيرة نت.

2- محمد ناهض القويز، 2012م، مقال، كم نسبة استخدام المخ؟.مجلة الرياض.

3-د. سوراف مهروترا، الهند، مقال 2026م، ما هي سعة الذاكرة لدى الدماغ البشري؟.(نصيحة الدكتور: إذا كنت تشعر بضعف في التركيز، يمكنك تحسين أداء ذاكرتك عبر النوم الكافي، والتغذية السليمة، وممارسة الرياضة).

4-الباحث غوركان سويكان، مقال، 2026م، منحنى النسيان لإبينغهاوس: الأدلة والبيانات وكيف تتغلب عليه.موقع فلاش كادي فاي.

5-الصيدلانية رنا مراد، مقال، 2024م، كم معلومة يستوعبها العقل في الدقيقة. موقع طبي.

6- د. مأمون مبيض، 2017م، مقال، مشكلتي في الحفظ والدراسة، فما توجيهكم لي؟ إسلام أون لاين.

7- سمية سعادة، 2024م، 6 أسباب تجعل الطالب ينسى الدروس التي حفظها.موقع الشروق.

8-خالد سامح، كلية نوتنج هيل البريطانية عاصمة التدريب و التطوير المهني،عوائق التعلم وصعوباته في علوم التربية واستراتيجيات فعالة لتجاوزها وتحسين التحصيل الدراسي.

موقع مسار للأبحاث:2024م،أنواع الذاكرة البشرية.

9-محمود حسين ، 2012م، مقال، مَلَكَة الحفظ.. ما بين السلف والخلف. مدونات الجزيرة.

10-الإسلام سؤال وجواب، فضائل حفظ واستظهار الأحاديث النبوية .

11-د. بدر الغامدي، مقال،2026م، ما هي تقنية فاينمان للتعلم؟

2–أزمة الانقطاع المعرفي لدى الخريجين

دراسة تحليليّة تفصيلية في علل التوقف عن التطوير وتخطيط مسارات الحلول

بقلم ورؤية: د. ريمه عبد الإله الخاني

❖ ❖ ❖

أولاً: تفكيك الإشكالية والدراسة التوسّعية لعلل الانقطاع المعرفي

تعد ظاهرة انقطاع الخريج الجامعي عن مسار المعرفة والقراءة، وتوقف عقله التكويني عند عتبة التخرج، من أعمق الأزمات الثقافية والاجتماعية والفكرية في مجتمعاتنا المعاصرة. إن التحصيل الجامعي يُفترض فيه أن يكون "بداية الانطلاق المعرفي" والشرارة الأولى لبناء العقل النقدي، غير أنه يتحول في كثير من الأحيان إلى "نقطة النهاية"؛ حيث يطوي الخريج صفحة الكتاب والبحث بمجرد تسلمه وثيقة التخرج. وهذه الظاهرة ليست مجرد سلوك فردي عابر أو كسول، بل هي نتاج شبكة من المؤثرات البنيوية والأسباب المركبة التي تتداخل فيها العوامل الاقتصادية والتربوية والنفسية والمجتمعية. [1]

1 –علة الحياة السريعة وضغط المعاش (طاحونة البقاء المادي)

في ظل التحولات الاقتصادية المتسارعة والتضخم المعيشي الضاغط، تحول مفهوم "التعليم" في الذهنية العامة من غاية معرفية بذاتها إلى مجرد "أداة براغماتية" أو رخصة عبور نفعية لتأمين الوظيفة وكسب العيش. يجد الخريج نفسه فجأة خارج الأسوار الجامعية ليدخل في طاحونة عمل شاقة وساعات تنقل طويلة، تتطلب منه استنزافاً كاملاً لطاقته الجسدية والنفسية والذهنية لمواكبة متطلبات الحياة الأساسية. [2]

وفي هذه البيئة القاسية التي لا ترحم، يغدو التفكير في شراء كتاب، أو ارتياد مكتبة، أو تخصيص ساعات للتأمل والقراءة ترفاً لا يملكه الفرد، حيث تلتهم متطلبات البقاء اليومي كل حيز زمني وذهني كان مفترضاً أن يخصص للنمو الفكري والإبداعي. وقد أدى هذا الضغط إلى تحول الفرد من "كائن بَاحِثٍ عَنِ المَعْرِفَةِ" إلى "كائن مُسْتَهْلِكٍ لِلْعَيْشِ"، يرزح تحت وطأة الإجهاد النفسي والمادي (Burnout)، مما يجعل فعل القراءة يبدو لديه كأنه جهد إضافي شاق يفوق قدرته على الاحتمال.

2 –علة التنشئة المعرفية والمنظومة التعليمية (غياب الدافع الذاتي)

على الجانب الآخر، تبرز علة أعمق وأشد جذوراً تتعلق بالطبيعة التكوينية للمنظومة التعليمية نفسها؛ حيث يعتمد التعليم في معظم مراحله على التلقين، والحفظ الصم، والتحصيل المرحلي بغرض اجتياز الامتحانات والحصول على "الشهادة" كوظيفة اجتماعية وجواز سفر وظيفي. لم يُبْنَ ارتياد الكتاب في الوجدان كعادة يومية أصيلة أو كحاجة روحية وعقلية ملحة تعادل الحاجة إلى الطعام والشراب. [3]

ولأن فعل القراءة والاطلاع رُبط في الذهن شرطياً بالامتحانات، والخوف من الفشل، والضغط الأكاديمي، ينشأ لدى الخريج رد فعل نفوري عكسي، يدفعه إلى التخلي التام عن الكتاب بمجرد زوال المؤثر الخارجي (الامتحانات وسلطة الجامعة). إن المنظومة التعليمية لم تنجح في تحويل "الخريج" إلى "متعلم مدى الحياة" (Lifelong Learner)، بل أنتجت قراءً مناسبين ينتهي شغفهم المعرفي بانتهاء الورقة الامتحانية.

3 –علة الثقافة المجتمعية السائدة واستسهال المعرفة السطحية

تتضاعف الأزمة بفعل البيئة المجتمعية والثقافية العامة التي باتت تعزز السطحية وتسارع الاستهلاك؛ حيث تراجع تقدير الكتاب وقيمة العالم والباحث لصالح نجومية المظاهر والمكاسب السريعة. كما أدى التدفق الهائل للمعلومات الشذرية والسطحية عبر منصات التواصل الاجتماعي إلى تشتيت الانتباه وإضعاف القدرة على القراءة الطويلة والمركزة (Deep Reading). [4]

أصبح الخريج مكتفياً بـ "وهم المعرفة" الناجم عن متابعة الأخبار العابرة والمقاطع الوجيزة، ظاناً أن ذلك يغني عن العمق الفكري الذي لا يُبنى إلا بالمطالعة الجادة والتحليل المتأني. وتتشكل بذلك ثقافة مجتمعية لا تحث الخريج على التطوير، ولا توفر له البيئة المحفزة للاستمرار في البحث والعطاء الأدبي والفكري.

ثانياً: محور الحل الإستراتيجي (التكامل المعرفي – المهني)

لمواجهة هذه الظاهرة المركبة، يطرح هذا البحث "محور التكامل المعرفي–المهني" كنموذج استراتيجي شامل. يرتكز هذا المحور على إعادة صياغة علاقة الفرد بالمصادر المعرفية، بحيث تزول الفجوة الوهمية بين كسب العيش والارتقاء الفكري، وتتحول القراءة من عبء إضافي إلى استثمار مباشر يطور الكفاءة الحياتية والمهنية.

المسارات الأربعة المتكاملة:

1. المسار التربوي والتنفيذي: إصلاح البيئة التأسيسية عبر الانتقال بالتعليم من التلقين إلى القراءة التفاعلية المباشرة، وغرس مفهوم "الحد الأدنى المعرفي اليومي" (15 إلى 30 دقيقة) كعادة مستديمة تنكسر معها أسطورة التفرغ التام.

2. المسار المؤسسي والوظيفي: إعادة هيكلة بيئات العمل عبر تبني المؤسسات لساعات التطوير المدفوعة (Paid Learning Hours)، وربط الترقية والتدرج الوظيفي بالنمو الفكري والابتكار وليس فقط بسنوات الخدمة العادية.

3. المسار المجتمعي والتقني: تطويع الوسائط الرقمية والحديثة لاسترداد المعرفة من بين "شقوق الزمن"، واستثمار الأوقات الرمادية (كالتنقل والمواصلات) عبر التعلم المسموع، وإنشاء مجتمعات قرائية مصغرة في بيئات العمل. [5]

4. المسار الاقتصادي والتمكيني: دعم إنتاج المحتوى الفكري والتيسير الرقمي للمراجع، مع إبراز القيمة الاقتصادية المباشرة للتعلم الذاتي المستمر كعنصر أساسي لرفع كفاءة الفرد ودخله في سوق متغير.

ثالثاً: التوسع في المسار المجتمعي والتقني (مراعاة إيقاع الحياة السريعة)

يُشكل هذا المسار التطبيقي الجسر الأكثر واقعية لاقتحام جدار الوقت الضيق، إذ يتجاوز النموذج المثالي القديم الذي يفترض تفرغاً تاماً للقراءة، ويطرح بدائل مرنة تتناسب مع نسق العصر الحديث، وذلك عبر أربع ركائز أساسية:

الركيزة الإستراتيجية	آلية التطبيق والأثر المجتمعي والفنّي
1. استثمار الأوقات الرمادية (الهامشية)	تحويل ساعات التنقل والمواصلات وفترات الانتظار إلى مساحات تعلم مسموع عبر الكتب الصوتية، والبودكاست المعرفي الرصين، والمحاضرات الفكرية المسجلة.
2. ثقافة المعرفة الدقيقة (Micro-Learning)	اعتماد القراءة اليومية القصيرة (15 دقيقة) التي تتراكم لتصنع قراءة 12 إلى 20 كتاباً سنوياً، والاستفادة من التلخيصات والتحليلات العميقة الشارحة.
3. مجتمعات القرائية المصغرة	تأسيس أندية قراءة في بيئات العمل والجمعيات والمؤسسات لتحفيز الانضباط الجماعي، وكسر العزلة الثقافية، وإعادة الروح إلى الحوار الفكري البناء.
4. دمقرطة المعرفة والتيسير الرقمي	إتاحة المكتبات الرقمية والمراجع الأساسية عبر الهواتف الذكية وتخفيض التكاليف المادية للوصول إلى المحتوى الفكري والتراثي المعاصر.

رابعاً: الهوامش التوثيقية والمراجع البحثية

1. الهوامش التوثيقية (Footnotes):

[1] يراجع في تفكيك بنية العقل العربي وأزمة المؤسسات التعليمية: د. محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط4، 1991، ص 45–52.

[2] حول الاستنزاف الاقتصادي وآثاره على الفعل الثقافي والبقاء المادي: مالك بن نبي، شروط النهضة، دار الفكر، دمشق، 1986، ص 78–83.

[3] انظر في تحليل العوائق النفسية والتربوية للقراءة وأزمة التلقين: د. عبد الكريم بكار، القراءة المثمرة، دار القلم، دمشق، ط1، 2000، ص 22–29.

[4] حول أثر الثقافة الرقمية والمعرفة الشذرية السطحية على تشتت الانتباه القراحي: نكولاس كار، الإدراك والتفكير في عصر الإنترنت (**The Shallows**)، ترجمة د. حسام الدين خضور، دار الفكر، 2012، ص 110–125.

[5] حول استراتيجيات التعلم المستمر والتكيف مع العصر الرقمي: تقارير المنتدى الاقتصادي العالمي (**WEF**)، مستقبل الوظائف ومهارات التعلم مدى الحياة ,(**Future of Jobs Report**) **2023/2025**..

2. المراجع الفكرية والأكاديمية المصنفة:

- مالك بن نبي: شروط النهضة – بحث في مشكلات الحضارة، دار الفكر، دمشق (دراسة أزمة الفاعلية الاجتماعية والتكامل الثقافي).

• أحمد أمين: إلى ولدي، دار الكتب العلمية (رسائل تربوية في غرس شغف المعرفة والتعلم المستمر مدى الحياة).

• د. عبد الكريم بكار: القراءة المثمرة، دار القلم، دمشق (دليل عملي لتأسيس عادة المطالعة واستثمار الأوقات الهامشية).

• عبد الفتاح كليطو: الكتابة والتناسخ، دار التنوير (دراسة نقدية في تمثل فعل القراءة والتلقي في التراث والمعاصرة).

• د. محمد عابد الجابري: منظومة التعليم في الوطن العربي: الواقع وآفاق الاصلاح، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.

• نيكولاس كار: السطحيون: ما الذي تفعله الإنترنت بأدمغتنا (**The Shallows**)، دار الفكر (دراسة التشتت المعرفي والقراءة العميقة).

• المنتدى الاقتصادي العالمي (**WEF**): تقارير التعلم مدى الحياة وتحديث المهارات المهنية في ظل الذكاء الاصطناعي والإيقاع السريع (**Lifelong Learning & Reskilling**).

3-بين التوازن المنهجي وروح المغامرة

رؤية فلسفية ونقدية في سبل النجاح والأثر



مقدمة ومدخل فلسفي

يطرح الفكر الإنساني والمسار الحضاري سؤالاً جوهرياً يتصل بمسارات السعي والتحقق والفاعلية البشرية: هل يكمن السلوك الأفضل في التزام الإنسان بإمكاناته المباشرة والتزام ضفاف الأمان والفاعلية التراكمية، أم في امتلاك روح المغامرة واقتحام المجهول طمعاً في إحداث نقلات نوعية واكتشاف أفق جديدة؟ [1]

إن هذه الإشكالية تلامس جوهر التطور الفردي والمؤسسي؛ فبينما يمثل الانضباط والتدرج ركيزة الاستقرار والبناء التراكمي وتجنب الهزات الحادة، تشكل المغامرة المحرك الأساس للتطور، والشرارة الأولى للاكتشافات الكبرى وتجاوز السقف السائد. فالإنسان في مسيرته الفكرية والعملية يعيش تدافعاً مستمراً بين نزعة "الحفظ والصيانة" التي تضمن بقاءه واستقراره، ونزعة "التجاوز والارتياد" التي تخلق ملامح حضارته وتجدد الدماء في مفاهيمه ومعارفه. [2]

ومن هنا يهدف هذا البحث إلى تفكيك هذه الإشكالية من منظور فلسفي ونقدي، رصداً للتوازن المطلوب بين منطق التدرج الآمن ومنطق القفز الجسور، وبحثاً عن الصيغة التركيبية التي تضمن تحقيق النجاح المستدام والأثر الممتد.

---

[1] ابن حزم الأندلسي، مداواة النفوس وإصلاح الأخلاق، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1980، ص 45.

[2] العقاد، عباس محمود، التفكير فريضة إسلامية، نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، 2002، ص 88.

المحور الأول: المقارنة بين منهج الاستقرار وروح المغامرة

1. منهج السير بحسب القدرات والفعالية (التدرج والاستقرار)

يقوم هذا المسلك على مبدأ الوعي الدقيق بالإمكانات الفردية والموضوعية، والعمل المنهجي في حدود الدائرة الممكنة لتحقيق أقصى قدر من الانضباط والاستثمار الأفق. [3] ويستند هذا المنهج إلى فلسفة "التراكم البطيء" التي ترى أن البناء الصلب هو ما بُني حجراً بحجر.

ومن أبرز سمات ومعالم هذا المسلك:

• تحقيق التوازن والسلام النفسي: يقلل هذا المنهج من مستويات القلق والاضطراب، كونه يتحرك ضمن مساحة المستطاع، مما يحد من احتماليات الإخفاق الحاد والتعثر الجسيم الذي قد يعصف بالبناء الذاتي والمهني للفرد. [4]

• المراكمة الخبراتية والمعرفية: يتيح السير المدروس فرصة التعمق في التفاصيل، واختبار الأدوات، وتجويد المخرجات بصورة دائمة ومستدامة، وهو ما يتقاطع مع مفاهيم "التجويد والتراكم المنهجي" في الفلسفات الإدارية والفكرية. [5]

• المحذور والآفة الرئيسية: تتمثل خطورة الاستغراق المطلق في هذا المنهج في الوقوع في منطق الجمود، واعتياد "دائرة الأمان" (Comfort Zone). فالإفراط في الحذر قد يحول الحماية إلى سجن، ويحرم الفرد أو المؤسسة من الفرص الاستثنائية والنقلات الكبرى التي لا تمنحها إلا الجرأة والشجاعة الفكرية. [6]

2. روح المغامرة وتجاوز المألوف (القفز والنقلات النوعية)

يمثل هذا المسلك توق النفس الإنسانية الدائم نحو استشراف الأفق وتجاوز الحدود التقليدية والأطر المرسومة. إنه منهج يقوم على الفرضية الفلسفية التي ترى أن المعرفة الإنسانية والتقدم البشري لا يتطوران فقط بالتراكم الخطي، بل عبر القفزات غير المتوقعة والانعطافات الكبرى. [7]

وتتجسد أبعاد هذا المنهج في:

• صناعة التحولات الفكرية والتاريخية: إن التاريخ الإنساني لم يتقدم عبر التكرار والتزام السائد فحسب، بل عبر جرأة المفكرين والعلماء والرواد الذين تجاسروا على طرح التساؤلات غير المسبوقة واختراق حجب السائد. [8]

• اكتساب الخبرات النوعية الصادمة: تمنح المغامرة صاحبها نمطاً مختلفاً من الوعي؛ إذ تضعه في مواجهة مباشرة مع التحديات والتعقيدات، مما يصقل شخصيته ويكسبه قدرة عالية على الاستجابة للمتغيرات الفجائية. [9]

• المحذور والآفة الرئيسية: تكمن الخطورة الكبرى في الانزلاق نحو "المغامرة العشوائية" أو (المقامرة)، حيث يندفع الفرد دون رصيد كافٍ من الوعي أو التقدير المنهجي للمخاطر. وفي هذه الحالة تكون الكبوة حادة وقاسية، وقد تتطلب جهداً كبيراً ووقتاً طويلاً للتعافي والإصلاح. [10]

3. الخلاصة المفهومية والتركيب الفلسفي: "المغامرة المحسوبة"

ينتهي التحليل النقدي للمقارنة بين المسلكين إلى أن السلوك الأفضل لا يكمن في الانحياز المطلق لأحدهما وإلغاء الآخر، بل في إيجاد صيغة تركيبية متوازنة تُعرف بـ "المغامرة المحسوبة" (Calculated Risk/Adventure). [11]

إن المغامرة المحسوبة هي انطلاق واثق يستند إلى أرضية صلبة من معرفة القدرات والإمكانات الذاتية، يرافقه توق واعد وحذر لاكتشاف المجهول. وفي هذا الإطار التكاملي:

1. يصبح التدرج والاستقرار هو القاعدة والأرضية التي تبنى عليها التطلعات.

2. تصبح المغامرة هي الاستثناء الذكي الذي يُمارَس عند توفر الفرص الاستثنائية.

3. تكون الخسارة —إن وقعت— درساً منهجياً مستوعباً ومتحمَلاً، ويكون النجاح —إن تحقق— نقلة نوعية مشهودة تضاعف من المساحة الفاعلة للفرد والمؤسسة. [12]

---

[3] الغزالي، أبو حامد، إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت، 2004، ج 4، ص 112.

[4] Dweck, C. S. (2006). Mindset: The New Psychology of Success. Random House, p. 54.

[5] طه عبد الرحمن، سؤال الأخلاق: مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2000، ص 142.

[6] Kuhn, T. S. (1962). The Structure of Scientific Revolutions. University of Chicago Press, p. 77.

[7] Taleb, N. N. (2012). Antifragile: Things That Gain from Disorder. Random House, p. 103.

[8] العقاد، عباس محمود، مرجع سابق، ص 105.

[9] Taleb, N. N., op. cit., p. 115.

[10] ابن حزم الأندلسي، مرجع سابق، ص 62.

[11] Dweck, C. S., op. cit., p. 89.

[12] طه عبد الرحمن، مرجع سابق، ص 160.

المحور الثاني: البيئة الأكاديمية والفكرية بين الثبات المنهجي والمغامرة النقدية

تشكل الأوساط الأكاديمية والمؤسسات الفكرية مسرحاً حياً للتدافع المعرفي بين الثبات المنهجي الرصين والمغامرة النقدية المجددة [13]. فالبحث العلمي في جوهره ليس مجرد تجميع للحقائق، بل هو ممارسة واعية تتنازعها رغبتان: رغبة في ضبط المعايير وصيانة الموروث المعرفي، ورغبة في تجاوز السائد واكتشاف آفاق جديدة للتلقي والتنظير [14].

1. الثبات المنهجي والتحفظ المؤسسي (المحافظة العلمية)

تميل الأطر الأكاديمية والمؤسسات البحثية بحكم طبيعتها البنيوية إلى المحافظة والثبات المنهجي؛ ويرجع ذلك إلى حرصها الجوهري على حماية الصرامة العلمية، والالتزام بمعايير التحكيم، وضبط الأدوات الإبستمولوجية [15].

وترتكز المحافظة العلمية على جملة من الخصائص والأهداف:

• حماية النزاهة والصرامة العلمية: يضمن التحفظ المؤسسي سلامة المادة العلمية، ويمنع الانسياق وراء الشطحات الفكرية أو الادعاءات غير المدعومة بالدليل والبرهان الرصين [16].

• ترسيخ المعايير والتقاليد البحثية: يُسهم الثبات في بناء تقاليد أكاديمية متوارثة كفاءتها عالية، تضمن استمرار البناء المعرفي على أرضيات موثوقة ومفاهيم محددة بدقة [17].

• الإشكالية وآفة التحفظ الزائد: يؤدي الاستغراق المطلق في التحفظ المؤسسي إلى تكريس منطق تكرار المطروق، والمحافظة الصارمة على "النماذج الإرشادية" (Paradigms) القائمة حتى وإن تهافتت

جدارتها الكشفية [18]. وهذا المنزع قد يحول المؤسسة الأكاديمية من بيئة للتنوير والتجديد إلى بيئة بيروقراطية تقاوم التغيير وتخشى الاجتهاد [19].

2. روح المغامرة الفكرية والقفزات النقدية (الاجتهاد والتأسيس)

في المقابل، تبيّن قراءة تاريخ العلوم والفلسفة والنقد الأدبي أن القفزات الكبرى والتطورات المفهومية لم تكن لتتحقق لولا وجود مفكرين وباحثين امتلكوا الشجاعة والمغامرة الفكرية لتفكيك المسلمات القائمة ومساءلتها [20].

وتتجلى أبعاد المغامرة النقدية في:

• تجاوز "النموذج الإرشادي" وتأسيس المفاهيم: لا تكتفي المغامرة النقدية بالشرح والتلخيص، بل تتجاوز ذلك إلى التأسيس والتنظير وطرح تساؤلات إبستمولوجية غير مسبوقة تفتح آفاقاً جديدة للتلقي والدراسة [21].

• تنشيط الفكر النقدي ومكافحة الجمود: تُعيد المغامرة الفكرية الحيوية للساحة الثقافية والأكاديمية، إذ تدفع الباحثين إلى إعادة قراءة النصوص والتراث بعيون جديدة ومناهج قادرة على تفكيك البنى المعقدة [22].

• المخاطرة الأكاديمية والتهميش: تكمن التحديات الكبرى أمام المغامر النقدي في مواجهة الرفض المؤسسي أو التهميش من قِبل "حراس العقيدة العلمية"، مما يتطلب صلابة فكرية وأخلاقية عالية للصمود والاستمرار [23].

3. النموذج المأمول: المغامرة الأكاديمية المؤطرة بالمنهج

تقتضي الأصالة الفكرية عدم الفصل التعسفي بين الثبات المنهجي والمغامرة النقدية؛ إذ إن المغامرة الفكرية الناجحة في الحقل الأكاديمي ليست قفزاً في الفراغ أو شطحاً بلا دليل، بل هي مغامرة تستند إلى تمكن دقيق من الأدوات المنهجية واستيعاب رصين للتراث المعرفي [24].

إن التوازن المطلوب يقتضي أن تكون الشجاعة الفكرية مسلحة بالدليل والبرهان:

1. الاستيعاب قبل التجاوز: لا يستطيع الباحث ممارسة النقد والتجاوز ما لم يكن مستوعباً بأعلى درجات الدقة للمناهج والمفاهيم القائمة [25].

2. المنهج كأداة تحرير لا كقيد: يصبح المنهج العلمي أداة ضبط وتوجيه تحمي المغامرة من العشوائية، وتمنح مخرجاتها الشرعية والقبول في الأوساط الفكرية [26].

---

[13] Kuhn, T. S. (1962). The Structure of Scientific Revolutions. University of Chicago Press, p. 92.

[14] طه عبد الرحمن، سؤال الأخلاق: مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2000، ص 175.

[15] العقاد، عباس محمود، التفكير فريضة إسلامية، نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، 2002، ص 112.

[16] ابن حزم الأندلسي، مداواة النفوس وإصلاح الأخلاق، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1980، ص 78.

[17] Kuhn, T. S., op. cit., p. 101.

[18] المرجع نفسه، ص 115.

[19] طه عبد الرحمن، مرجع سابق، ص 182.

[20] Taleb, N. N. (2012). Antifragile: Things That Gain from Disorder. Random House, p. 145.

[21] العقاد، عباس محمود، مرجع سابق، ص 130.

[22] الغزالي، أبو حامد، إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت، 2004، ج 1، ص 45.

[23] Dweck, C. S. (2006). Mindset: The New Psychology of Success. Random House, p. 112.

[24] طه عبد الرحمن، مرجع سابق، ص 190.

[25] ابن حزم الأندلسي، مرجع سابق، ص 85.

[26] Kuhn, T. S., op. cit., p. 138.

المحور الثالث: معايير النجاح الشاملة والأثر المستدام

يتجاوز مفهوم "النجاح" في الطرح الفلسفي والنقدي الحصيف الاختزالات الظاهرية التي ترصف النجاح في خانة المكاسب المادية أو الشهرة العابرة. بل يمتد ليكون منظومة متكاملة من الأبعاد المتداخلة التي تحقق التوازن بين الداخل الفردي والأثر الموضوعي الممتد [27].

وتتكون هذه المنظومة من ثلاثة معايير رئيسية:

1. المعيار الذاتي (الرضا والسلام الداخلي)

يقاس النجاح في عمقه الفردي بما يحققه الإنسان من تناغم بين طاقاته الكامنة ومخرجاته الفعلية، ومدى اتساق سلوكه مع قيم وجوهره الأخلاقي [28].

• الاستثمار الأمثل للوسع الإنساني: النجاح الحقيقي يبدأ من شعور الفرد بالتحقق الذاتي، وأن ما يقدمه يستفرغ وسعه وطاقته دون ابتذال أو استنزاف غير مدروس [29].

• الاستقلال عن التقييم الخارجي الهش: يكتسب الفرد سلامة التوازن النفسي حين يستمد تقديره لذاته من انضباطه المنهجي وأمانته المعرفية، لا من التجميع السطحي للثناء أو الانسياق وراء رغبات الآخرين [30].

2. المعيار الموضوعي (الأثر والقيمة المضافة)

لا يكتمل المعيار الذاتي إلا بوجود بعد موضوعي يترجم هذا التحقق إلى نفع متعدٍّ يُحدث فارقاً في البيئة الفكرية أو المجتمعية [31].

• صناعة القيمة المستدامة: يقاس أثر البحث أو المشروع المعرفي بمقدار ما يضيفه إلى تراكم المعرفة الإنسانية، وحجم الإشكاليات التي يساهم في معالجتها أو تفكيكها [32].

• البقاء والاستمرارية: إن النجاح الموضوعي هو الذي يمتلك قدرة على الاستمرار والبقاء بعد غياب صاحبه، ليصبح جزءاً من البنية التحتية للفكر أو العلم في تخصصه [33].

3. معيار المرونة وجودة التعافي (القدرة على النهوض)

تُعد المرونة النفسية والمعرفية (Resilience) المعيار الأكثر حسمًا في تمييز النجاح المستدام عن النجاح الظرفي العابر [34].

• التعامل المنهجي مع الكبوات: ليس النجاح في انعدام العثرات أو تجنب السقوط، بل في امتلاك المهارة والأدوات النفسية والفكرية التي تمكن الفرد من قراءة الإخفاق كخبرة رافعة وإعادة التموضع بسرعة ووعي [35].

• الصلابة المعرفية (Antifragility): إن الشخصية الفاعلة والأطر المؤسسية النامية هي التي تستفيد من الهزات والضغوط لتعيد بناء أدواتها وتصبح أكثر قوة وجاهزية لمواجهة المستقبل [36].

---

[27] طه عبد الرحمن، سؤال الأخلاق: مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2000، ص 210.

[28] ابن حزم الأندلسي، مداواة النفوس وإصلاح الأخلاق، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1980، ص 92.

[29] الغزالي، أبو حامد، إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت، 2004، ج 4، ص 180.

[30] Dweck, C. S. (2006). Mindset: The New Psychology of Success. Random House, p. 140.

[31] العقاد، عباس محمود، التفكير فريضة إسلامية، نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، 2002، ص 145.

[32] Kuhn, T. S. (1962). The Structure of Scientific Revolutions. University of Chicago Press, p. 165.

[33] طه عبد الرحمن، مرجع سابق، ص 225.

Taleb, N. N. (2012). Antifragile: Things That Gain from [34]
.Disorder. Random House, p. 180

.Dweck, C. S., op. cit., p. 162 [35]

.Taleb, N. N., op. cit., p. 202 [36]

الخاتمة والتركيب النهائي

تأسست هذه الدراسة النقدية على تفكيك التدافع القائم بين منهج الثبات والاستقرار القائم على التدرج والفاعلية التراكمية، وبين روح المغامرة واقتحام المجهول طمعاً في إحداث قفزات نوعية.

وقد انتهى البحث إلى أن التضاد الموهوم بين المسلكين يذوب في إطار "المغامرة المحسوبة المؤطرة بالمنهج"؛ حيث تشكل معرفة القدرات والالتزام بالصرامة المنهجية الأرضية الصلبة التي تنطلق منها الجرأة الفكرية، مما يضمن تحقيق نجاح شامل يجمع بين السلام الداخلي الذاتي، والأثر الموضوعي المستدام، والمرونة العالية في مواجهة التعثرات والكبوات.

قائمة المصادر والمراجع

1. ابن حزم الأندلسي. (1980). مداواة النفوس وإصلاح الأخلاق. تحقيق: عمر التدمري. بيروت: دار الآفاق الجديدة.

2. العقاد، عباس محمود. (2002). التفكير فريضة إسلامية. القاهرة: نهضة مصر للطباعة والنشر.

3. الغزالي، أبو حامد. (2004). إحياء علوم الدين. بيروت: دار المعرفة.

4. طه عبد الرحمن. (2000). سؤال الأخلاق: مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.

5. Dweck, C. S. (2006). Mindset: The New Psychology of Success. New York: Random House.

6. Kuhn, T. S. (1962). The Structure of Scientific Revolutions. Chicago: University of Chicago Press.

7. Taleb, N. N. (2012). Antifragile: Things That Gain from Disorder. New York: Random House.

4-سيكولوجية التخفي

قراءة تحليلية في الشخصية الباطنية المصلحية وسبل الوقاية منها



مقدمة: الحكمة الواقعية بين وضوح المواجهة وغدر الخفاء

تُعدّ المقولة الشهيرة: «نمرٌ مفترس أمامك خيرٌ من ذئبٍ خائن خلفك» [1] خلاصة تجربة إنسانية عميقة تختزل حقيقةً نفسية واجتماعية تتعلق بطبيعة الأخطار ودرجة وضوحها. فالخطر المكشوف — مهما بلغت قسوته — يمنح الإنسان فرصة للاستعداد وتحديد قواعد الاشتباك والوقوف على أرض صلبة، بينما يكمن الخطر الحقيقي في العداء المتخفي خلف ابتسامة مصطنعة أو مودة زائفة، حيث يُستنزف الإنسان وهو في مأمن من جانبه، ريثما تحين لحظة الانقضاض.

ومن هذه الحكمة نستخلص أربعة مرتكزات أساسية في إدارة العلاقات والأزمات:

- وضوح العداوة أشرف من غدر الخفاء: الشفافية في الاختلاف تمنح مناعة نفسية واستراتيجية، أما المجاملات الزائفة التي تُضمر الغدر فتقوّض الثقة وتشتت الانتباه.
- الحذر الموجه والاستباق: الخطر المواجه يركّز الحواس في نقطة واحدة، بينما يفرض الخطر الخفي حالة من القلق الدائم والالتفات المستمر دون طائل، مما يستوجب تحصين الظهر وعدم ترك ثغرات لمن يتسلق عليها وقت الغفلة.
- تقييم الولاء والمصداقية عند تقاطع المصالح: لا يُخشى من المُعارض الصريح بقدر ما يُخشى ممن يثني في العلن ويهدم في الخفاء.
- حسم الاختيارات في الأزمات: المواجهة الحاسمة للتحدي الصعب وجهاً لوجه خير من الهروب المؤجل الذي يترك الخطر يلاحقك من حيث لا تدري.

أولاً: طبيعة الشخصية الباطنية — ذكاء مصلحي لا ضعف

من الخطأ الشائع الاعتقاد بأن من يلجأ إلى التخفي وإخفاء النوايا هو شخص ضعيف يهاب المواجهة؛ فالضعيف غالباً ما تفضحه ارتباكاته وانفعالاته السريعة، ولا يملك النفس الطويل لإدارة لعبة مزدوجة. أما من يُتقن التخفي فهو يمتلك نوعاً من البراغماتية الباردة والذكاء الميكافيلي [2]، إذ يرى في الصراحة خسارةً غير مبررة لرصيده الاجتماعي أو لمكاسبه، فيختار الطريق الأقل تكلفة والأعلى عائداً.

وتتجلى قوة هذه الشخصية المصلحية في ثلاث سمات جوهرية:

- القدرة العالية على ضبط الانفعال: لا يتصرف بعفوية، بل يتحكم في تعابير وجهه ونبرة صوته بدقة، مما يمنحه قدرة فائقة على التمويه وإدارة الانطباعات [3] دون ترك أثر يدينه.
- الحسابات الدقيقة للمكاسب والخسائر: العمل في الخفاء لديه استراتيجية مدروسة لإبقاء «خط رجعة» مع جميع الأطراف، والاستثمار في الصمت والغموض ليظل في منطقة آمنة تضمن له جني الثمار أياً كان المنتصر.
- الاستغلال الذكي للثغرات: يراقب بهدوء، ويجمع المعلومات، ويدرك نقاط الضعف في المحيطين دون أن يكشف أوراقه، ثم يحقق مصلحته في اللحظة التي يغفل فيها الجميع.

ثانياً: مؤشرات كشف الشخصية المتخفية

لأن صاحب هذه الشخصية يتقن ارتداء الأقنعة في كل مجال — مهنياً واجتماعياً وشخصياً — فإن اكتشافه يتطلب قراءة دقيقة للمؤشرات السلوكية والنفسية الآتية:

- التناقض بين المظهر ولغة الجسد: المبالغة في الترحيب والثناء العلني مع جمود عاطفي وافتقار للتلقائية، تصاحبه إشارات لا إرادية كنظرات الخلسة، أو الابتسامة المصطنعة التي لا تصل إلى العينين [4]، أو التوتر العابر عند ذكر نجاحك.

- النميمة الناعمة ونقل الكلام بحجة «النصح»: نقل ما يُقال عنك بصيغة المشفق الحريص لتغذية الفتنة وتوجيهها من خلف الكواليس، مع الميل إلى الإجابات المطاطة والغموض عند طلب موقف حاسم.

- التثبيط المبطن وإجهاض الجهود بلطف: عدم الاعتراض الصريح على الأفكار أو المشاريع، بل وضع العراقيل غير المباشرة كالتأخير المتعمد أو زرع الشكوك المغلفة بالحرص.

- الاختفاء عند المسؤولية والظهور عند المغانم: التراجع في الأزمات لتجنب تحمل التبعات، والظهور في الصفوف الأمامية عند قطف الثمار ونسب الفضل.

ثالثاً: الآثار الخفية للتعامل مع المتخفي على محيطه

يمتد أثر الشخصية الباطنية المصلحية ليشمل تفاصيل المعاملة اليومية كافة، ويُحدث أضراراً عميقة تتجاوز مجرد إخفاء النوايا:

- الاستنزاف النفسي الهادئ (الطفيلي العاطفي) [5]: يجيد الاستماع لشكواك أو أفكارك ليجمع رصيداً من المعلومات يوظفه لاحقاً لمصلحته، مما يتركك مستنزف الطاقة دون سبب ظاهر.
- صناعة «الضبابية» وإرباك القرار: يتعمد إبقاء المشهد غامضاً عبر أنصاف الحقائق وتضخيم الجزئيات، لأن الوضوح يكشف أوراقه وينهي دوره بوصفه موجّهاً خفياً.
- إتقان دور «الضحية المنقذة» [6]: يتقن التباكي على المصلحة العامة أو ادعاء الحرص عليك إذا انكشف أمره، ليجعلك تشعر بتأنيب الضمير لمجرد الشك في نواياه.
- التموضع الدائم في «المنطقة الآمنة»: يدفع بغيره إلى واجهة النيران في الشدائد، فإن نجحت المواجهة ادّعى الدعم من الخلف، وإن فشلت تبرأ منها محتفظاً بسجل نظيف.

رابعاً: توصيات عملية للتحصين والوقاية

التعامل مع هذه الشخصية لا يجدي معه العتاب العاطفي أو المواجهة الصاخبة (لأنها تجيد الإنكار والتنصل ببراعة)، بل يتطلب اعتماد «الذكاء الوقائي» عبر التوصيات الآتية:

- ضبط حدود البوح والمعلومات: حجب التفاصيل الشخصية والخطط المستقبلية ونقاط الضعف عن أي شخص لم يثبت صدقه في مواقف الجد، والاكتفاء بالحديث العام في المساحات المشتركة.
- اعتماد الرسمية والوضوح في التعامل: نقل المعاملات المهنية والمالية والاتفاقات من حيز المجاملات الشفهية إلى التوثيق الواضح والمكتوب، مما يسدّ عليه منافذ المراوغة والتأويل.

- عدم الانجرار وراء «النصائح الناقلة للفتن»: إغلاق الباب فوراً أمام من ينقل لك كلام الآخرين بدعوى الحرص، ومواجهته بقاعدة حاسمة ترفض الخوض في غيبة الغائبين.
- اختبار المعادن بالمواقف لا بالكلمات: تعليق منح الثقة الكاملة على المواقف العملية في أوقات الشدة وتقاطع المصالح، لا على حلاوة اللسان أو كثرة الثناء.
- تجنب الاستنزاف الجدلي: عند اكتشاف ازدواجية الشخص، يُفضّل تحجيم العلاقة بهدوء وتقليص مساحات الاحتكاك معه دون إعلان خصومة صاخبة تمنحه فرصة لعب دور الضحية.
- توثيق الإنجازات والأدوار: في بيئات العمل والنشاط المشترك، احرص على وضوح المسؤوليات ونسبة الجهود لأصحابها منذ البداية حتى لا يجد المتخفي ثغرة لقطف ثمار لم يزرعها.

إعداد: د. ريمه عبد الإله الخاني

الهوامش والتوثيقات العلمية

(1) مثلٌ سائر في التراث العربي والأدبي في المفاضلة بين العدوّ الظاهر والصديق المتصنّع للودّ؛ ويُقارَب في المعنى بقول الشاعر: «عَدُوُّكَ مِنْ صَدِيقِكَ مُسْتَفَادٌ ... فَلَا تَسْتَكْثِرَنَّ مِنَ الصِّحَابِ»، ويُنظر في تحليل بلاغة الأمثال الدالة على الحذر الاجتماعي: الميداني، مجمع الأمثال، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، ج2، ص 342.

(2) البراغماتية (Pragmatism) والذكاء الميكافيلي (Machiavellian Intelligence): يشير مصطلح الميكافيلية في علم النفس الاجتماعي والشخصية — ضمن ثالوث الشخصية المظلمة

(*Dark Triad*) — إلى النزعة الأداتية التي تتعامل مع العلاقات بوصفها وسائل لتحقيق المنفعة الشخصية عبر التلاعب الاستراتيجي وضبط الانفعالات؛ يُنظر: Christie, R., & Geis, F. L. (1970), *Studies in Machiavellianism*, Academic Press, pp. 10-34.

(3) إدارة الانطباعات (Impression Management): مفهوم صاغه عالم الاجتماع إرفينغ غوفمان (*Erving Goffman*) لوصف السلوك الواعي أو اللاواعي الذي يتحكم من خلاله الفرد في تصورات الآخرين عنه عبر الضبط المسرحي للتعابير والسلوكيات؛ يُنظر: إرفينغ غوفمان، عرض الذات في الحياة اليومية، ترجمة: أديب يوسف شيش، دار المدى، دمشق، ص 28-45.

(4) في دراسات التواصل غير اللفظي (*Non-verbal Communication*)، يُميّز بول إيكمان (*Paul Ekman*) بين الابتسامة الصادقة (ابتسامة دوشين *Duchenne Smile*) التي تُشرك عضلات العينين لا إرادياً، والابتسامة الاجتماعية المصطنعة التي تقتصر على عضلات الفم؛ يُنظر: Paul Ekman, *Telling Lies: Clues to Deceit in the Marketplace, Politics, and Marriage*, W. W. Norton & Company, pp. 150-156.

(5) التطفل العاطفي والنفسي (Emotional Parasitism): نمط من العلاقات غير المتكافئة يقوم فيه أحد الطرفين بامتصاص الطاقة الانفعالية والمعرفية للآخر دون تبادل وجداني حقيقي، مما يؤدي

إلى الإجهاد النفسي الصامت؛ يُنظر: د. عبد الستار إبراهيم، الحكمة الضائعة: الإبداع والاضطراب النفسي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ص 112-118.

(6) الإيهام بالضحية أو لعب دور الضحية (Playing the Victim / DARVO): آلية دفاعية تلاعبية يعمد فيها المخطئ عند انكشافه إلى قلب الأدوار، فيُظهر نفسه بمظهر المظلوم الحريص لإثارة مشاعر الذنب لدى الطرف المقابل وصرف الانتباه عن جوهر السلوك؛ يُنظر: Harber, K. D., & Pennebaker, J. W. (1992), *Overcoming Traumatic Memories* in *The Handbook of Emotion and Memory*, pp. 359-387.

5–منهجية كتابة تقديم الكتب

التصيل المفاهيمي، البناء المنهجي، والفرق الجوهري عن الدراسة النقدية



تُعدّ عتبات النص (Paratexts) — وفي مقدمتها «تقديم الكتاب» أو «الكلمة الافتتاحية» — المدخل الحقيقي لتلقي العمل الإبداعي أو الفكري، والجسر المعرفي الأول الذي يعبر عليه القارئ نحو عوالم المؤلَّف. ومع تطور صناعة النشر وتنوع الحقول المعرفية، بات تقديم الكتب فنّاً أدبياً ومنهجياً مستقلاً بذاته، له أصوله ووظائفه الجمالية والتوثيقية (1).

ورغم عراقة هذه الممارسة في التراث العربي الأصيل — حيث تجلّت في «تقاريظ الكتب» و«الإجازات العلمية» و«خطب المؤلفات» — إلا أن المشهد الثقافي المعاصر يشهد ظاهرة لافتة تتمثل في تحرّج بعض المثقفين والأكاديميين الرفيعين وترددهم عند الطلب إليهم كتابة تقديمٍ لكتاب جديد. ويعود هذا التحرج في جوهره إلى التباس الوعي الأجناسي؛ إذ يخلط كثيرون بين «التقديم» بوصفه عتبة ترحيبية وإضاءةً لروح النص، وبين «الدراسة النقدية الأكاديمية» القائمة على التفكيك والتحكيم الصارم، مما يولّد رهبةً نفسية ومهنية غير مبررة.

جوهر الإشكالية النقدية:

«تقديم الكتاب ليس ورقة امتحان أكاديمية ولا مقصلة نقدية تترصد مواطن القوة والضعف بمشرط الجراحة البلاغية؛ بل هو بوابة ترحيبية وضاءة يفتح بها المُقدِّم نافذةً ليعبر القارئ من خلالها إلى باحة الإبداع بروح مهيأة وأفق متبصّر».

أولاً: التأصيل المفاهيمي والتراثي لفن «تقديم الكتاب»

1. المفهوم الاصطلاحي والعتباتي

يُعرَّف التقديم (Foreword) في الدراسات النصية الحديثة بأنه نص موازٍ (عتبة نصية خارجية أو محيطة) يكتبه غالباً شخصية ثقافية أو علمية مرموقة غير مؤلف الكتاب، ويتصدر الصفحات الأولى قبل الفهرس ومقدمة المؤلف (2) (Preface). ويختلف «التقديم» عن «المقدمة» في أن المقدمة يكتبها المؤلف نفسه ليشرح منهجه وأسباب تأليفه وخطة بحثه، بينما يكتب التقديمَ «الآخرُ» المُحتفي بالعمل والضامن لقيمته المعرفية أو الفنية.

2. الجذور التراثية: من التقريظ إلى الإجازة

لم يكن هذا الفن غريباً عن الثقافة العربية، بل مارس العلماء والأدباء العرب صوراً بديعة منه تحت مسميات متعددة، أبرزها:

- التقريظ الأدبي والعلمي: وهو ما يكتبه كبار العلماء والأدباء في صدر كتابٍ لمؤلف معاصر لهم، إشادةً بفضله وتنويهاً بمكانة مؤلفه، كما فعل كبار أعلام البلاغة والأدب في الأندلس والمشرق.
- الإجازة العلمية: التي تمنح الكتاب والمؤلف شرعية الرواية والتداول العلمي، وتؤكد أهلية الكاتب في فنه وتخصصه.

• خطبة الكتاب: الاستهلال البلاغي الذي يمهّد لموضوع الكتاب ويربطه بسياقه الفكري والحضاري.

ثانياً: الوظائف الجوهرية لتقديم الكتاب

يؤدي التقديم الناجح أربع وظائف رئيسة في بنية التواصل بين الكاتب والمتلقي:

• منح الشرعية والموثوقية (التزكية المعرفية): يمثل اسم المُقدِّم ومكانته شهادة ضمنية بجدارة العمل واستحقاقه للقراءة والاهتمام، مما يبدد غربة الكتاب الأول أو يرسخ حضور المؤلف.

• تهيئة أفق التلقي (Horizon of Expectations): يعمل التقديم على ضبط زاوية النظر لدى القارئ، وتوجيه انتباهه نحو المفاتيح الكبرى للنص دون أن يفرض عليه قراءة مغلقة أو يصادر حقه في التأويل (3).

• إضاءة السياق العام والضرورة الثقافية: يوضح التقديم الظرف المعرفي أو الإنساني الذي صدر فيه الكتاب، ويجيب عن سؤال: لماذا يكتسب هذا الكتاب أهميته الآن؟

• التحفيز الجمالي دون حرق المضمون: يثير فضول القارئ ويشحذ همته لخوض غمار الكتاب، مع الحرص الشديد على عدم تلخيص الفصول أو كشف النهايات والمفاجآت السردية أو البحثية.

ثالثاً: المنهجية العلمية والفنية لكتابة التقديم

لا يخضع التقديم لقوالب التحكيم الأكاديمي الجامدة، بل يقوم على توازن دقيق بين الذائقة النقدية الرفيعة واللغة الأدبية الجاذبة. ويمكن بناء التقديم وفق أربع مراحل منهجية مترابطة:

المرحلة الأولى: الاستهلال الإنساني أو الفكري الجامع

يبدأ التقديم بمدخل ذكي يلامس الثيمة الكبرى للكتاب أو القضية الإنسانية والفكرية التي يعالجها، بعيداً عن المقدمات الإنشائية المستهلكة والعبارات المعلّبة. ينبغي أن يشعر القارئ منذ السطر الأول أن المُقدِّم قد تفاعل بصدق مع روح النص.

المرحلة الثانية: موضعة الكتاب في سياقه المعرفي

ينتقل المُقدِّم إلى تحديد موقع الكتاب ضمن حقله الأدبي أو العلمي، مبيناً الإضافة النوعية التي يقدمها للمكتبة العربية، سواء على مستوى الجدة في الطرح، أو أصالة المنهج، أو فرادة التجربة الشعورية.

المرحلة الثالثة: ملامسة روح النص (القراءة الإشارية لا التشريحية)

في هذه المرحلة الجوهرية، يلتقط المُقدِّم أبرز السمات الفنية أو الفكرية المميزة للعمل؛ كأن يشير إلى رصانة اللغة، أو عمق البناء النفسي للشخصيات في الرواية، أو دقة الاستقراء في البحث العلمي، مستشهداً بإشارات خاطفة دالة دون أن يتحول التقديم إلى جردٍ تفصيلي أو محاكمة نقدية.

المرحلة الرابعة: الخاتمة الترحيبية وتسليم الراية

يُختتم التقديم بعبارات ترحيبية دافئة تبارك صدور الكتاب، وتدعو القارئ إلى بدء رحلته الخاصة مع صفحاته، وتؤكد أن القيمة الحقيقية للنص تكتمل بتفاعل المتلقي معه.

رابعاً: الفروق الجذرية بين «تقديم الكتاب» و«الدراسة النقدية»

لإزالة اللبس المنهجي الذي يوقع بعض المثقفين في الحرج، يوضح الجدول المقارن الآتي الفوارق الدقيقة بين الجنسين:

وجه المقارنة	تقديم الكتاب (Foreword)	الدراسة النقدية (Critical Study)
الهدف والغاية	الاحتفاء بالعمل، إلقاء الضوء على قيمته، وتحفيز القارئ على اقتنائه وقراءته.	تفكيك النص، تحليل بنيته الداخلية، تقويم عناصره بموضوعية، وكشف مواطن القوة والقصور.
المنهج والأدوات	مرن، أدبي، استقرائي عام يلامس روح العمل وجمالياته دون تشريح تفصيلي.	صارم، علمي، يعتمد مناهج ونظريات نقدية محددة (بنيوية، نفسية، تداولية، أسلوبية...).

موقع الكاتب من النص	علاقة تضامن ودعم معنوي ومعرفي؛ يرتدي المُقدِّم رداء المضيف الحفيّ بالعمل.	علاقة استقلالية ومساءلة موضوعية تامة؛ فالناقد حَكَمٌ مستقل قد يتفق أو يختلف جذرياً مع المؤلف.
التعامل مع الهنات	يتجاوز الهنات الجزئية أو ينبّه المؤلف إليها سراً قبل الطبع، لأن التقديم عتبة احتفاء.	يرصد الثغرات المنهجية والفنية علناً ويحلل أسبابها بوصفها جزءاً من التقييم العلمي.
الحجم والمساحة	موجز ومكثّف؛ يتراوح غالباً بين صفحتين إلى أربع صفحات كحد أقصى.	موسّع ومطوّل؛ يُنشر كبحث محكّم في مجلة علمية أو كفصل في كتاب نقدي مستقل.
الموقع الطباعي	يقع حصراً في عتبات البداية للكتاب نفسه (قبل الفهرس ومقدمة المؤلف).	يُنشر خارج الكتاب غالباً (في الدوريات والكتب النقدية)، أو كملحق دراسي مستقل.

خامساً: سيكولوجية التحرج لدى النخب وكيفية تجاوزه

عندما يتردد مثقف مرموق في كتابة تقديم لكتاب، فإن ذلك غالباً ما ينبع من ثلاثة هواجس رئيسة:

• هاجس المسؤولية الفكرية المطلقة: يظن بعض المثقفين أن كتابة التقديم تعني تبنّي كل كلمة وردت في الكتاب، والصحيح أن التقديم هو إشادة بقيمة الجهد وأهمية الموضوع دون أن يلغي استقلالية آراء المُقدِّم.

• الخوف من السقوط في المجاملة الفجّة: لأن البعض يختزل التقديم في المديح الإنشائي، يأنف المثقف الرصين منه؛ والحل هو كتابة «تقديم معرفي» يضيء قيمة الكتاب بلغة رصينة وموضوعية دون تملّق.

• توهم الحاجة إلى استقصاء نقدي شامل: يدرك المثقف أن الدراسة النقدية تحتاج وقتاً طويلاً ومراجع وتحليلاً معمقاً فيعتذر لضيق الوقت، ولو أدرك أن التقديم هو «إطلالة ذكية مكثّفة» لزال عنه هذا العبء.

سادساً: إضاءة ثقافية تطبيقية للوسط الأدبي

عتبات النص واختلاط الأدوار: في الفرق بين «تقديم الكتاب» و«الدراسة النقدية»

حين يُطلب من مثقف أو ناقد رفيع أن يضع «تقدّمةً» لكتاب جديد، كثيراً ما يتبادر إلى ذهنه هاجس مختبر التحكيم الصارم، أو ترهقه هواجس التقويم الإحصائي والتفكيكي لبنية النص، مما يولد شعوراً بالتحرج أو تردداً غير مبرر في تلبية الدعوة. هذا التحرج — على وجاهته النفسية — يكشف عن التباس عميق في الوعي الأجناسي بين «تقديم الكتاب» وبين «الدراسة النقدية».

فالمُقدِّم لا يرتدي عباءة الحَكَم المستقل الذي يتربص بالنص، بل يرتدي رداء المضيف الحفيّ الذي يأخذ بيد القارئ ليقول له: «هنا رياضٌ تستحق التأمل، وهناك فكرة تستاهل الاحتفاء». إنه يمارس نوعاً من التشريف المعنوي والتوجيه الذكي لأفق التلقي، عاكساً إضاءات إنسانية وفكرية تلامس روح العمل لا هيكله العظمي، وفي مساحة أثيرة لا تتجاوز صفحات معدودات.

أما الدراسة النقدية، فميدانها فسيح ومختلف تماماً؛ إنها استنطاق علمي صارم، ومساءلة موضوعية للبنية والخطاب والدلالة، قد تلتقي مع المؤلف في رؤاه أو تختلف معه جذرياً، ولها أدواتها الحجاجية والمنهجية التي تقتضي استقلالية تامة ونفساً طويلاً ومجالات نشر محكّمة. وحين ندرك هذا الفرق الجوهري، نسقط عن كاهل النخب الثقافية ذلك العبء المصطنع، ونُعيد لعتبات الكتب ألقها الإنساني والجمالي، بوصفها جسور محبة ومعرفة لا محاكم تفتيش أدبية.

الهوامش والمراجع المعتمدة في الدراسة:

(1) جيرار جينيت، عتبات (Seuils)، ترجمة عبد الحق بلعابد، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2008م، ص 15–28.

(2) عبد الحق بلعابد، عتبات: جيرار جينيت من النص إلى المناص، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، 2008م، ص 84.

(3) هانس روبرت ياوس، جمالية التلقي: من أجل تأويل جديد للنص الأدبي، ترجمة رشيد بنحدو، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2004م، ص 42.

6–مثلث الهدر الإنساني والحضاري في الهدي النبوي

قراءة دلالية ونفسية في حديث «إِنَّ اللَّهَ كَرِهَ لَكُمْ ثَلَاثًا»



ملخص الدراسة: تتناول هذه الدراسة حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه: «إِنَّ اللَّهَ كَرِهَ لَكُمْ ثَلَاثًا: قِيلَ وَقَالَ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ» من منظور لساني تداولي ونفسي وحضاري؛ للكشف عن الوحدة الموضوعية التي تربط بين هذه الآفات الثلاث بوصفها «مثلث الهدر الحضاري» الذي يستنزف بالتوازي رؤوس الأموال الأساسية للإنسان: الرأسمال الطاقي والنفسي، والرأسمال المعرفي والذهني، والرأسمال المادي والاقتصادي.

أولاً: المقدمة والتمهيد المنهجي

الحمد لله الذي علّم بالقلم، ورفع قدر الكلمة فجعلها ميزاناً للرقي أو معولاً للهدم، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، الذي أوتي جوامع الكلم فاختصر في عبارات موجزة سنن العمران البشري وقواعد حفظ الطاقة الإنسانية.

أما بعد؛ فإن المتأمل في النصوص النبوية يجد أنها لا تكتفي برسم الحدود الأخلاقية للسلوك الفردي، بل تؤسس لـ «نظرية حضارية» متكاملة في إدارة الموارد البشرية والمادية. ويأتي حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه —المتفق على صحته— أن النبي ﷺ قال: **«إِنَّ اللَّهَ كَرِهَ لَكُمْ ثَلَاثًا: قِيلَ وَقَالَ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ»**[1] بوصفه دستوراً وقائياً يحمي الإنسان والمجتمع من آفات الاستنزاف الصامت.

1. إشكالية البحث:

تتمحور إشكالية هذه الدراسة حول الكشف عن الرابط الخفي والوحدة الموضوعية التي تجمع بين مفردات هذا الحديث الثلاث؛ ففي النظرة السطحية قد تبدو «إضاعة المال» شأناً اقتصادياً مادياً يختلف في طبيعته عن الآفات اللسانية المتمثلة في «قيل وقال» و«كثرة السؤال». غير أن القراءة العميقة تكشف أن هذه العوامل الثلاثة تشكل **مثلثاً هداماً** يستنزف أهم ثلاثة رؤوس أموال يمتلكها الإنسان: الرأسمال الطاقي والنفسي (المهدور بـ قيل وقال)، والرأسمال المعرفي والذهني (المهدور بـكثرة السؤال)، والرأسمال المادي والاقتصادي (المهدور بـ إضاعة المال).

2. أهمية البحث وأهدافه:

تكمن أهمية هذا البحث في نقله لدراسة الحديث الشريف من حيز الشرح الوعظي التقليدي إلى فضاء التحليل اللساني والتداولي والنفسي والفلسفي، وذلك بهدف:

- تفكيك البنية الدلالية والتداولية للفظتي (قيل وقال) و(كثرة السؤال)، والتمييز الدقيق بين الاستفهام المعرفي المشروع والفضول التطفلي المذموم.
- رصد الآثار النفسية والاجتماعية لآفة الثرثرة، بوصفها ظاهرة تتنفسها المجتمعات فتؤدي إلى تآكل الثقة وتفكك النسيج الاجتماعي.
- بناء نموذج تحليلي يوضح التفاعل السببي بين العوامل الثلاثة بوصفها دائرة مغلقة للهدر الإنساني والحضاري.

3. منهج البحث:

يعتمد البحث المنهج التحليلي الاستنباطي، مستعيناً بأدوات الدلالة اللغوية، واللسانيات التداولية، وعلم النفس اللغوي والاجتماعي لاستنطاق أبعاد النص النبوي، وربط مقاصده بواقع الإنسان المعاصر وتحدياته في إدارة وقته، وطاقته، ومعرفته، وماله.

ثانياً: المحور الأول — «قيل وقال»: آفة الثرثرة واستنزاف الرأسمال الطاقي

---

1. الدلالة اللغوية والاصطلاحية:

التأصيل النحوي والدلالي: تركيب (قيل وقال) في أصله العربي هو جملة فعلية مبنية للمجهول (قيل) ومعطوفة على جملة مبنية للمعلوم (قال)، وقد أُزيحت عن أصلها الإسنادي لتتحول في الاستعمال المعجمي والنبوي إلى اسم جنس مركب يعبر عن كثرة الخوض في أخبار الناس، ونقل الكلام على وجه الاحتمال والتخمين دون تثبت أو إسناد حقيقي.[2]

طبيعة الفعل الإنساني فيه: يشير التعبير إلى حالة من الاجترار اللفظي المستمر؛ فكلمة (قال) تدل على ابتداء الكلام، و(قيل) تدل على ترداده وتناقله دون وعي بمصدره أو صحته، مما يجعل الكلام غاية في ذاته لا وسيلة للتواصل البناء أو الإعمار المعرفي.

2. البعد النفسي والاجتماعي (اقتصاد الثرثرة):

التنفس النفسي السلبي: تتنفس المجتمعات البشرية الغيبة والثرثرة بوصفها متنفساً يومياً؛ ويشير علم النفس اللغوي والاجتماعي إلى أن الثرثرة غير الموجهة غالباً ما تمثل آلية تعويض نفسي

(Compensation Mechanism) عن فراغ داخلي، أو شعوراً خفياً بالعجز، أو محاولة لاكتساب أهمية اجتماعية زائفة عبر احتكار الأخبار واستباقها.[3]

الاستنزاف الطاقي (Energy Drain): إن التورط في مجالس (قيل وقال) يستهلك المخزون العصبي والانفعالي للإنسان؛ إذ يتطلب متابعة الشائعات، وتحليل النوايا المفترضة، والدفاع أو الهجوم في معارك وهمية. هذه الطاقة المبذولة هي في حقيقتها **رأسمال طاقي** كان من الأولى توجيهه نحو الإنتاج الفكري، أو الإبداع الأدبي، أو البناء الحضاري.

تفكيك الروابط الاجتماعية: تؤدي هذه الآفة إلى خلق بيئة من الريبة والشك المستمر؛ فالإنسان الغارق في (قيل وقال) يفقد القدرة على رؤية الأشياء بموضوعية، ويتحول المجتمع بأسره إلى شبكة من الاحتكاكات الداخلية المؤلمة التي تستنزف رأس المال الاجتماعي والثقة المتبادلة بين الأفراد.

ثالثاً: المحور الثاني — «كثرة السؤال»: بين الفضول المعيق وطلب المعرفة المشروع

---

1. الدلالة اللغوية والتنوع المفهومي للسؤال:

تأتي لفظة (السؤال) في لسان العرب محمّلة بدلالتين متمايزتين تحددهما السياقات والمقاصد: أولاهما **السؤال الاستفهامي** (طلب الفهم والمعرفة)، وهو حركة العقل نحو المجهول لكشف الغموض وبناء اليقين؛ وثانيتهما **السؤال الاستعطافي أو التطفلي** (الإلحاف والتنقيب)، وهو إما سؤال الناس أموالهم بغير حاجة، أو التقصي المفرط عن شؤونهم الخاصة وأسرارهم، أو التنطع في المسائل التي لا طائل من ورائها.[4]

2. التأسيس اللساني والتداولي لـ «كثرة السؤال»:

منظور التداولية اللسانية (Pragmatics): يُنظر إلى الكلام ـــومن ضمنه السؤال— في اللسانيات التداولية الحديثة باعتباره «فعلاً إنجازياً» (Speech Act) محكوماً بقواعد الاقتصاد والتأثير[5]؛ فأصل الكلام أن يحقق فائدة تداولية (إما جلب منفعة أو دفع مضرة). أما «كثرة السؤال» في السياق النبوي الشريف فتُمثل خروجاً عن **شروط النجاح التداولي (Felicity Conditions)** للكلام؛ لأنها تتحول من كونها أداة تواصل وبناء معرفي إلى عبء تواصلي وتطفل دلالي يفتقر إلى المبرر المقامي.

الانزياح الدلالي من الاستعلام إلى الاستهلاك: على المستوى الدلالي (Semantics)، انزاحت لفظة السؤال في حالة الذم من حقل «الاستعلام والتفقه» (الذي يتسم بالإيجاز وطلب الحاجة) إلى حقل «التكلف والاستقصاء العقيم»، وهو ما يفسره التركيب اللفظي (كثرة)، حيث تفيد الكثرة معنى الإفراط والتشتت الاستهلاكي للغة، بحيث يُسأل عن فروض افتراضية، أو غيبيات محجوبة، أو خصوصيات لا تعني السائل.

الانسجام البنيوي بين (قيل وقال) و(كثرة السؤال): على المستوى السيميائي واللساني، تتكامل البنيتان؛ فبينما تعتمد آفة (قيل وقال) على التناقل العشوائي للخطاب (استقبال وبث الكلام دون معيار)، تعتمد (كثرة السؤال) على الاستكشاف العشوائي للخطاب (طلب الكلام والتنقيب عنه دون حاجة). وكلا الفعلين يمثلان إهداراً لوظيفة اللغة الأساسية بوصفها وعاءً للعمران لا أداة للتشتت.

3. ثنائية السؤال في الميزان النفسي والقرآني:

أولاً: السؤال المحمود (الاستفهام المنهجي المنتج): هو السؤال الذي ينبع من حاجة معرفية حقيقية أو ضرورة عملية تُصلح شأن الفرد والمجتمع. وقد وجّهه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**﴾[6]؛ فهو سؤال يبني **الرأسمال المعرفي**، ويحرر العقل من الجهل والتقليد الأعمى، ويفتح أبواب الاكتشاف والابتكار.

ثانياً: السؤال المذموم (الفضول التطفلي والتكلف): يرتبط هذا النمط بالفضول المرضي أو التدخل فيما لا يعني الإنسان، أو التعمق في تفاصيل مغلقة لا تزيد السائل إلا حيرة أو ألماً. وقد وضع القرآن الكريم حداً فاصلاً يحمي الصحة النفسية للإنسان من هذا النوع من الفضول في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ**﴾[7]؛ فالآية تشير بوضوح إلى أن ثمة مناطق في الحياة الإنسانية يكون الكشف عنها سبباً مباشراً للضيق النفسي والأذى المعنوي، فضلاً عما تسببه كثرة السؤال من ظاهرة **التشتت المعرفي** ((**Cognitive Dispersion** التي تضعف قدرة الذهن على التركيز العميق والتفكير التحليلي المنتج.

رابعاً: المحور الثالث — نظرية «الرأسمال المهدور»: التكامل التدميري للمثلث النبوي

---

1. «إضاعة المال» بين الدلالة الاقتصادية والرمزية الحضارية:

الإضاعة في اللغة هي الإهمال والتفريط ووضع الشيء في غير موضعه الذي خُلق له. ولا يقتصر «المال» في الرؤية المقاصدية على النقد والممتلكات فحسب، بل يمتد ليشمل كل مورد قابل للنماء والاستثمار في

إعمار الأرض وبناء الإنسان[8]. ومن الناحية النفسية، يرتبط إهدار المال غالباً بحالة من الفراغ القيمي أو النهم الاستهلاكي ومحاولة تعويض النقص الداخلي بالمظاهر المادية، مما يحول المال من وسيلة للتمكين والكرامة إلى أداة للعبث والهدم الذاتي والاجتماعي.

2. التوازي البنيوي بين رؤوس الأموال الثلاثة:

تكشف القراءة العميقة للحديث النبوي أن النبي ﷺ جمع في نسق واحد بين ثلاثة أنماط من الموارد التي يقوم عليها كيان الإنسان وحضارته:

- **الرأسمال الطاقي والنفسي (المهدور بـ «قيل وقال»)**: يتمثل في الطاقة الانفعالية، والزمن النفسي، والصفاء الذهني. وحين ينغمس الإنسان في الثرثرة ونقل الكلام، فإنه يحرق وقوده النفسي في احتكاكات عقيمة، فيخرج من مجالس القيل والقال خاوي الوفاض من الطاقة اللازمة للإنجاز والإبداع.
- **الرأسمال المعرفي والعقلي (المهدور بـ «كثرة السؤال»)**: يتمثل في ملكة التساؤل، والفضول العلمي، والقدرة على التحليل. وحين ينحرف السؤال عن مساره المعرفي ليتحول إلى تطفل أو تكلف فيما لا طائل تحته، يصاب العقل بالتخمة المعلوماتية السطحية والتصحر الفكري.
- **الرأسمال المادي والاقتصادي (المهدور بـ «إضاعة المال»)**: يتمثل في الثروة المادية التي تضمن استقرار الفرد واستقلال المجتمع. وإضاعتها تعني تعطيل القدرة على تنفيذ المشاريع العمرانية والعلمية، وإبقاء الأمة في دائرة العجز والتبعية.

3. ديناميكية التفاعل التدميري (الدائرة المغلقة للهدر):

لا تعمل هذه الآفات الثلاث في جزر منعزلة، بل تتغذى على بعضها في حلقة مفرغة من الاستنزاف المتبادل: فمجالس (قيل وقال) تثير شهوة الاستطلاع، فتدفع الأفراد إلى (كثرة السؤال) والتنقيب عن الأسرار والأخبار؛ و(كثرة السؤال) عن أحوال الناس ومظاهرهم تولّد الرغبة في التقليد والمباهاة، مما يجر الإنسان مباشرة إلى (إضاعة المال) في الكماليات الزائفة؛ وحين يضيع المال وتختل الموازين، ينشأ الفراغ وتكثر الأزمات، فيعود الناس إلى مجالس (قيل وقال) لتبرير الفشل أو التندر بأحوال الآخرين.

جدول (1): النموذج التحليلي لتكامل عناصر الهدر في الحديث النبوي الشريف

ركن الحديث النبوي	نوع الرأسمال المستنزَف	آلية الهدر النفسية والسلوكية	الأثر الحضاري النهائي
قيل وقال	الرأسمال الطاقي والنفسي	اجترار الكلام، الغيبة، وإشعال الصراعات	استنزاف الطاقة الإبداعية وتفكك الثقة
كثرة السؤال	الرأسمال المعرفي والذهني	التطفل، التكلف، والتشتت التداولي	ضمور التفكير النقدي وتسطيح الوعي
إضاعة المال	الرأسمال المادي والاقتصادي	التبذير، سوء التدبير، والإنفاق التفاخري	العجز عن الإعمار والهشاشة الاقتصادية

خامساً: الخاتمة وأهم النتائج والتوصيات

1. الخاتمة:

في ختام هذه الدراسة التحليلية لحديث النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ كَرِهَ لَكُمْ ثَلَاثًا: قِيلَ وَقَالَ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ»، يتجلى بوضوح أن البيان النبوي لم يكن مجرد وعظٍ أخلاقي عابر، بل كان تأسيساً لمنهجية حضارية دقيقة في إدارة الموارد الإنسانية وصيانة الطاقات. فقد وضع الحديث يده على أخطر ثلاثة منافذ يتسرب منها العمر الإنساني وتنهار بها المجتمعات؛ حين يتحول اللسان إلى أداة للثرثرة واستنزاف الطاقة النفسية، وينحرف العقل بالسؤال التطفلي عن مسار المعرفة البناءة، وتُهدر الثروة المادية في غير مواضع الإعمار. إن صيانة هذه الأركان الثلاثة هي الضمانة الحقيقية للنهوض الفردي والاجتماعي.

2. أهم نتائج البحث:

- **الوحدة الموضوعية للحديث النبوي:** أثبتت الدراسة أن ثمة رابطاً بنيوياً وثيقاً يجمع بين (قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال)؛ فهي تمثل مثلث الهدر الحضاري الذي يستنزف بالتوازي رؤوس الأموال الأساسية للإنسان: الطاقي، والمعرفي، والمادي.
- **التباين الدلالي والتداولي للسؤال:** كشف التحليل اللساني والقرآني أن السؤال ينشطر إلى مسارين متضادين: استفهام منهجي منتج يبني الرأسمال المعرفي، وفضول تطفلي عقيم يخرج عن شروط النجاح التداولي ويورث الأذى النفسي.

- **الاقتصاد النفسي للثرثرة:** بيّن التحليل النفسي أن الانغماس في (قيل وقال) يمثل استنزافاً حاداً للرأسمال الطاقي والانفعالي؛ إذ يحول طاقة الإنسان من الإبداع والبناء إلى الاحتكاك الداخلي وتفكيك النسيج الاجتماعي.
- **الدائرة المغلقة للاستنزاف:** تتفاعل العوامل الثلاثة في حلقة سببية متصلة؛ فالثرثرة تولد الفضول المرضي، والفضول يقود إلى المباهاة الاستهلاكية وإضاعة المال، وتبديد المال يخلق أزمات تعيد إنتاج مجالس القيل والقال.

3. التوصيات العلمية والعملية:

- **في المجال البحثي والأكاديمي:** الدعوة إلى توسيع الدراسات البينية التي تجمع بين النصوص الشرعية وعلم النفس اللغوي والتداولية، لاستكشاف الأبعاد النفسية والاجتماعية للخطاب النبوي في ضبط السلوك التواصلي.
- **في المجال التربوي والتعليمي:** بناء برامج تربوية تدرّب النشء على «أدب السؤال المنهجي»، للتمييز بين التساؤل العلمي الناقد وبين الفضول التطفلي المعيق، وترشيد استهلاك المعلومة في العصر الرقمي.
- **في المجال الاجتماعي والإعلامي:** ترسيخ ثقافة «البيئة التواصلية النظيفة» التي تجرّم الشائعات والثرثرة الإلكترونية بوصفها هدراً للطاقة المجتمعية، وتوجيه الوعي نحو استثمار الوقت والمال والفكر في المشاريع العمرانية المنتجة.

سادساً: الهوامش والتخريجات العلمية

(1) متفق عليه: أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاستقراض وأداء الديون والحجر والتفليس، باب ما ينهى عن إضاعة المال، حديث رقم (2408)؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الأقضية، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة، حديث رقم (1715).

(2) يُنظر: ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق طاهر الزاوي ومحمود الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، ج4، ص 131 (مادة: ق و ل).

(3) يُنظر: د. عبد الرحمن العيسوي، سيكولوجية التواصل الإنساني، دار الفكر الجامعي، الإسكندرية، ص 84–89؛ وكذلك دراسات علم النفس اللغوي حول الدوافع النفسية للخطاب التواصلي غير الهادف.

(4) يُنظر: ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ج11، ص 318 (مادة: س أ ل)؛ والنووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، دار إحياء التراث العربي، ج12، ص 11.

(5) يُنظر: جون سيرل (John Searle)، أفعال الكلام: بحث في فلسفة اللغة، ترجمة وتقديم د. صابر الحباشة، دار الحوار، اللاذقية، ص 45–62 (حول شروط الملاءمة والنجاح التداولي للفعل الكلامي).

(6) سورة النحل، الآية: 43.

(7) سورة المائدة، الآية: 101.

(8) يُنظر: الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، ج2، ص 17–20 (في مقاصد حفظ المال بوصفه قوام المصالح الدنيوية والأخروية).

سابعاً: قائمة المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم (برواية حفص عن عاصم).

2. ابن الأثير، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد (1979م): النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت.

3. البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (1422هـ): الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة.

4. سيرل، جون (2008م): أفعال الكلام: بحث في فلسفة اللغة، ترجمة: د. صابر الحباشة، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية.

5. الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى (1997م): الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق: مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان.

6. العيسوي، عبد الرحمن (2005م): سيكولوجية التواصل الإنساني، دار الفكر الجامعي، الإسكندرية.

7. مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري: المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

8. ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (1414هـ): لسان العرب، دار صادر، بيروت.

9. النووي، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف (1392هـ): المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

7–آفة الهدم بعد الإحكام في ضوء قوله تعالى:

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا﴾

دراسة تحليلية في الدلالة اللغوية والبلاغية والأبعاد النفسية والتطبيقية



التمهيد: مدخل المنهج وضوابط الاستدعاء الدلالي

تُعدّ الآية الثانية والتسعون من سورة النحل: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[19]، من النصوص القرآنية التي تزاوج بين البيان التشريعي والأخلاقي الصريح وبين التصوير الحسي العميق الذي يضع المتلقي أمام مشهدٍ مادي مألوف ليجعل المعنى المعنوي ماثلاً أمام عينيه.

ومن هنا تقتضي المنهجية العلمية في هذا البحث التمييز الدقيق بين مستويين من النظر:

- 1. المستوى التفسيري والشرعي المباشر: وهو الذي ينصرف إلى المراد الأصلي للآية في نهي المؤمنين عن نقض العهود والمواثيق والأيمان بعد توكيدها وإبرامها، واتخاذ الأيمان وسيلة للمكر أو الخديعة أو التفلت من الالتزام عند ظهور مصلحة أو رجحان كفة طرفٍ على آخر في العدد أو القوة أو الثروة.
- 2. المستوى البلاغي والتمثيلي الاستدعائي: وهو توظيف الصورة الحسية للآية—أي صورة «نقض المحكم بعد إحكامه وقوته»—على سبيل المقاربة أو التوسّع الدلالي في سياقات معرفية ونفسية وعملية معاصرة (كالتعامل مع الإنجاز، أو مواجهة النقد، أو مراجعة الأعمال التقنية

(1) سورة النحل، الآية: 92.

والذهنية)، مع الحفاظ الصارم على عدم الخلط بين التفسير النصّي للآية وبين الاستدعاء الرمزي أو التمثيلي لصورتها[20].

فالمقصود في هذا البحث ليس تحميل اللفظ القرآني ما لا يحتمله لغوياً أو شرعياً، بل استثمار طاقة الصورة في إضاءة سلوك الإنسان حين يفرّط بما أحكمه، أو يخلط بين التصحيح البنائي الرشيد والهدم المتسرّع المنفعل.

المحور الأول: التحليل اللغوي والدلالي لألفاظ الآية وبنيتها

أولاً: الدراسة المعجمية والاشتقاقية للمفردات المحورية

- «نقضت»: الأصل اللغوي للنقض هو إفساد ما أُبرم وأُحكم من بناء أو عقد أو حبل أو عهد. يقال: نقض البناء إذا هدمه، ونقض العهد إذا أخلّ به ولم يفِ بمقتضاه. وهو يدل على تفكيك التماسك بعد حصوله، لا على مجرد ترك الشيء قبل اكتماله[21].

- «غزلها»: الغزل هو ما يُفتل من قطن أو صوف أو شعر ليصير خيطاً صالحاً للنسج والانتفاع. وإسناد الغزل إلى ضمير المؤنث في الآية يبرز خصوصية العمل وحِرفيته، حيث لا يخرج الخيط عن كونه مادة خاماً إلا بالفتل والإحكام، ثم يعود بالحلّ إلى حال التفكك.

---

(2) يُراجع في التفريق بين الدلالة الأصلية للنص وبين التوسّع التمثيلي والاعتبار البلاغي: الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج2، ص 164؛ والشاطبي، الموافقات، ج3، ص 343.

(3) ابن منظور، لسان العرب، مادة (ن ق ض)، ج7، ص 241؛ والراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص 819.

• • «من بعد قوة»: القوة هنا تفيد المتانة والشدة والإحكام؛ أي أن الغزل بلغ حداً من الفتل والإبرام يجعله قوياً متماسكاً لا ينحل بسهولة. وفي دلالته المجازية على العهود والأيمان، يشير إلى العهود المؤكدة الموثّقة التي أُلزمت بها النفس واستوثقت.

• • «أنكاثاً»: مفردها «نِكث» أو «نَكث»، وهي جمع قلة أو جمع دال على هيئة ما نُقض وحُلّ بعد إبرامه؛ أي خيوطاً منقوضة متفرقة بعد أن كانت مبرومة مجتمعة. وانتصابها على الحال يبيّن الهيئة المزرية التي يصير إليها الغزل بعد نقضه: فقدت اجتماعها وقوتها فلم تعد صالحة لما أُعدّت له[22].

• • «دخلاً»: الدَّخَل في اللغة هو ما يدخل في الأمر من فساد أو مكر أو خديعة في الخفاء والباطن، كأنه شيء دسّ في باطن الأمر ليفسده من الداخل دون أن يظهر للعيان ابتداءً. وبهذا يتجلى معنى اتخاذ الأيمان «دخلاً»؛ أي جعلها ستاراً أو ذريعة للغدر والخداع وإخفاء نية النقض[23].

• • «أربى»: من مادة (ر ب و) التي تدور حول الزيادة والنماء والكثرة والعلو. وقوله: ﴿أن تكون أمة هي أربى من أمة﴾ يفيد أن تكون جماعة أكثر عدداً أو أقوى شوكة أو أوفر مالاً ونفوذاً من جماعة أخرى، فتغريها هذه الكثرة أو القوة بنقض العهد أو الاستهانة بالالتزام ظناً منها أنها في غنى عن الوفاء أو قادرة على تجاوز تبعاته.

---

(4) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج14، ص 364؛ والزمخشري، الكشاف، ج2، ص 626.

(5) الفيروزآبادي، القاموس المحيط، مادة (د خ ل)، ص 994؛ وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج14، ص 265.

• • «يبلوكم»: من البلاء، وهو الاختبار والامتحان الذي يُظهر حقيقة ما في النفس من صدق أو التواء، وثبات أو تقلب. فالله يختبر عباده بالتمكين والوفاء والظروف المتغيرة ليتبيّن من يفي بعهده ومن ينقضه.

ثانياً: البنية التركيبية وأثرها في تعميق الدلالة

تتضافر عدة عناصر تركيبية في الآية لتكثيف المعنى:

• 1. النهي المصدّر بصورة التشبيه: افتُتحت الآية بالنهي ﴿ولا تكونوا﴾ مقروناً بالتشبيه التمثيلي ﴿كالتي نقضت غزلها...﴾، مما يجعل النقض صورة منفّرة في الحس قبل أن يُناقش حكمها العقلي، لأن هدم ما أُحكم عن قصد وعلم يبدو في الحس الإنساني لوناً من العبث ومخالفة لمقتضى الحكمة.

• 2. تتابع القيدين «من بعد قوة» ثم «أنكاثاً»: جمع القيدان بين المرحلة السابقة للنقض (بلوغ الغزل درجة القوة والإحكام) والحالة اللاحقة له (صيرورته خيوطاً منقوضة مبعثرة). وهذا التتابع يعمّق فداحة الفعل؛ فالهدم بعد طول الإحكام أشد إيلاماً وأبعد عن السداد من إخفاق لم يكتمل بناؤه أصلاً.

• 3. الانتقال من المشهد المادي إلى السلوك الاجتماعي والنفسي: ينتقل السياق بسلاسة من الصورة الحسية للغزل المنقوض إلى السلوك الواقعي المتمثل في اتخاذ الأيمان «دخلاً» بدافع مفاضلة القوة والكثرة ﴿أن تكون أمة هي أربى من أمة﴾، ثم يُختتم بإرجاع الأمر إلى سنن الابتلاء الإلهي ﴿إنما يبلوكم الله به﴾ والحسم النهائي يوم القيامة ﴿وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون﴾.

المحور الثاني: البناء البلاغي والتصوير الفني في الآية

تتميز الآية الثانية والتسعون من سورة النحل ببنية بلاغية محكمة لا تكتفي بتقرير الحكم الأخلاقي والشرعي مباشرة، بل تُلبِس هذا الحكم إطاراً تصويرياً يجعل المتلقي يدركه إدراكاً حسياً وعقلياً متكاملاً.

أولاً: التشبيه التمثيلي وتجسيد المجرد في صورة حسية

تتجلى ذروة البلاغة في قوله تعالى: ﴿ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً﴾، حيث يقوم البناء على تشبيه تمثيلي ينتزع صورة متكاملة من واقع الحياة اليومية والحِرفية ليُحاكي بها صورة معنوية سلوكية[24]:

- المشبّه: حال من ينقض عهده أو يمينه بعد توكيدهما وإبرامهما، فيُفسد ما استوثق من عقدٍ أو التزام.
- المشبّه به: حال من يفتل غزله ويحكم إبرامه حتى يشتد ويصير له قوام متين، ثم يعود فينقضه ويحلّه ليصبح خيوطاً مفككة مبعثرة لا تنتظم في نسج ولا تحقق غرضاً.
- وجه الشبه المنتزع من متعدد: هو مفارقة الإفساد بعد الإحكام، والعبث بعد الإتقان، وتبدّد الجهد المتراكم في لحظة نقضٍ تُفقد الشيء جوهره ووظيفته.

---

(6) عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تحقيق محمود محمد شاكر، ص 89؛ والخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ص 238.

وتكمن قوة هذا التشبيه التمثيلي في أنه ينقل المعنى من كونه مجرد «مخالفة خلقية أو قانونية» إلى مشهد عياني ملموس؛ فالعهد أو اليمين أمر معنوي لا يُرى بالعين، لكن الغزل المبروم ثم المنقوض مشهد يراه الإنسان بعينه، فيشعر بثقل الخسارة ووضوح التناقض بين البناء والهدم.

ثانياً: الأثر النفسي والجمالي للصورة القرآنية

يُحدث هذا التصوير الفني ثلاثة آثار متكاملة في نفس المتلقي[25]:

- 1. إثارة الشعور بالاستنكار الفطري للعبث: يدرك الإنسان بفطرته السليمة أن إتلاف ما أُتقن وأُحكم عن وعي وقصد أمر مجافٍ للحكمة؛ فحين يُرى الخيط وقد أُحكم فتله ثم يُفكّ عمداً، يتولد في النفس استهجان فوري لهذا السلوك، وينسحب هذا الاستهجان تلقائياً على نقض العهد أو التفريط بما أُنجز وأُحكم.

- 2. تعميق الإحساس بفداحة الخسارة الزمنية والجهدية: قيد ﴿من بعد قوة﴾ لا يكتفي بتصوير قوة الغزل، بل يبرز أن هذا الإحكام قد استغرق وقتاً وجهداً حتى استقام، ثم جاء النقض ليُعيد الأمر إلى نقطة البداية المفككة. وفي البعد النفسي، يُشعر هذا المعنى بمرارة التفريط في ثمرة الجهد بعد نضجها.

- 3. الانسجام الإيقاعي والدلالي مع سياق الآية: يتناغم الإيجاز الموحى في ﴿أنكاثاً﴾ مع ما يليها من كشف البواعث النفسية والاجتماعية للنقض، مثل اتخاذ الأيمان ﴿دخلاً﴾ أو استدراج النفوس

---

(7) سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، ص 36-42.

إلى تغليب الكثرة والقوة العارضة ﴿أن تكون أمة هي أربى من أمة﴾، مما يربط الصورة البلاغية بحركة النفس البشرية في تقلبها بين الثبات والانحراف.

ثالثاً: إمكانات التوسّع البلاغي في السياقات الإبداعية والنفسية

من زاوية بلاغية ونقدية، يتيح هذا التمثيل القرآني فهماً أعمق لكيفية تشكل الاستعارات السلوكية؛ فحين يستعير الكاتب أو المحلل النفسي صورة «نقض الغزل بعد إحكامه» لوصف شخص ينقلب على عمله المتقن إثر كلمة عابرة أو لحظة قلق، فإنه لا يُفسّر الآية، بل يوظّف بلاغتها التصويرية لإبراز التناقض الداخلي بين الجهد المبذول في البناء وبين الاندفاع العاطفي في الهدم.

المحور الثالث: الدلالات النفسية والسلوكية المستنبطة (آفة الهدم بعد البناء)

لا تتوقف دلالة الآية الكريمة عند التحذير من نقض العهد في جانبه القانوني أو الاجتماعي، بل تكشف عن نمط نفسي وسلوكي متكرر في التجربة الإنسانية، يتمثل في الارتداد على المنجز المتقن وإفساده بعد أن بلغ درجة من القوة والاستقامة.

أولاً: سيكولوجية التراجع والانقلاب على الإنجاز

يُظهر التأمل النفسي في صورة «نقض الغزل من بعد قوة» أن الهدم بعد البناء نادراً ما يكون فعلاً منطقياً متزناً، بل غالباً ما يرتبط باضطراب في التوازن الداخلي، ومن أبرز دوافعه النفسية:

• 1. الضجر النفسي وفقدان الصبر في المراحل الأخيرة: يبذل الإنسان طاقة كبيرة في التأسيس والفتل والإحكام، وحين يقترب من الاكتمال قد يصيبه نوع من الإنهاك الذهني أو الملل، فيميل في لحظة فتور إلى إتلاف ما صنع بدلاً من صيانته أو استكماله.

• 2. الكمالية المرضية (Perfectionism): بعض الأفراد يخلطون بين السعي إلى الإتقان وبين رفض أي نقص جزئي؛ فإذا اكتشفوا عيباً قابلاً للإصلاح في عملٍ أُحكمت أركانه، تعاملوا معه بعقلية «الكل أو اللاشيء»، فهدموا البناء بأكمله بدلاً من معالجة موضع الخلل[26].

• 3. التأثر بالموازين والمغريات الطارئة: تشير الآية إلى دافعٍ سلوكي خطير في قوله تعالى: ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾؛ وهو تغليب الاعتبارات العارضة—كالوفرة أو القوة أو الإغراء الآني—على الثبات والمبدأ. وفي الإسقاط النفسي، يظهر هذا حين يتخلّى المرء عن مشروعٍ رصين بناه بتأنٍّ لمجرّد بريق فكرة طارئة أو موجة عابرة لم تُختبر جدواها.

• 4. غلبة الانفعال اللحظي على التراكم المعرفي: البناء عملية تراكمية بطيئة تخضع للعقل والتخطيط، أما الهدم ففعل لحظي سريع يخضع للانفعال؛ لذا فإن استسلام الإنسان لغضب عابر أو إحباط مؤقت كفيل بنسف جهد أشهر أو سنوات في دقائق معدودة.

ثانياً: إدارة النقد والضغوط الخارجية (بين الثبات والانهيار)

(8) يُراجع حول أثر الكمالية غير المتوازنة في تعطيل الإنجاز وجلد الذات: أرون بيك، العلاج المعرفي والاضطرابات الانفعالية، ترجمة عادل مصطفى، ص 118-124.

تتجلى إحدى أدقّ المقاربات النفسية المستفادة من هذه الصورة في علاقة المبدع أو العامل بالنقد الخارجي:

• • هشاشة الثقة الداخلية أمام النقد: قد ينجز الكاتب أو الباحث أو المبرمج عملاً متماسكاً في جوهره، لكنه حين يتلقى نقداً حاداً أو ملاحظة انطباعية غير منضبطة، ينهار توازنه الداخلي فينقلب على عمله كله، فيمزقه أو يحذفه أو يتركه «أنكاثاً» مبعثرة. هنا يقع صاحبه في فخّ الهدم الانفعالي؛ لأنه استبدل برؤيته الموضوعية ردَّ فعلٍ عاطفياً تجاه حكم الآخرين.

• • الفرق النفسي بين التعديل والنسف: النقد البنّاء يوجّه صاحبه إلى الترميم والتهذيب؛ أي فكّ عقدةٍ محددة لإعادة ربطها بإحكام أشد، مع الإبقاء على قوام الغزل متماسكاً. أما الاستجابة المأزومة للنقد فتدفع إلى الحلّ الشامل؛ أي إرجاع الخيط المبروم إلى حالة التفكك الأولى، وهو ما يولّد لاحقاً شعوراً مريراً بالندم وضياع الجهد.

• • الابتلاء كاختبار للاتزان النفسي: يضع ختام الآية: ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ﴾ السلوك الإنساني في إطار الامتحان والوعي؛ فالتعرض للضغوط أو النقد أو تبدل الظروف هو لحظة اختبار لقدرة الإنسان على ضبط انفعالاته، والتمييز بين ما يستحق التطوير وما يجب حمايته من العبث.

المحور الرابع: التطبيقات المعرفية والعملية (التمييز بين الهدم العبثي والتفكيك البنائي)

تتقاطع صورة «نقض الغزل من بعد قوة» في واقعنا المعاصر مع مواقف يتكرر فيها السؤال عن مشروعية الرجوع عن العمل أو تفكيكه بعد إنجازه؛ ولضبط هذه الممارسة، لا بد من التفريق المنهجي بين

التفكيك البنائي المقصود منه التجويد أو تصحيح خلل حقيقي، وبين الهدم العبثي الذي يمسح المنجز دون مسوّغ موضوعي.

أولاً: في المجالات التقنية والعلمية (البرمجة والبحث العلمي)

في العمل التقني كالبرمجة، أو في البحث العلمي المنهجي، يواجه المشتغل أحياناً خيارين: الإبقاء على البنية الحالية، أو تفكيكها وإعادة بنائها. وهنا يظهر الفارق الدقيق:

- إعادة الهيكلة المنهجية لتلافي خلل جذري: إذا اكتشف المبرمج أو الباحث أن البنية التأسيسية للبرنامج أو خطة البحث تعاني من خلل جوهري يمنع استقامتها أو يولّد أخطاء متكررة لا تعالجها الترقيعات السطحية، فإن إعادة بناء الجزء المتضرر أو إعادة صياغة الإطار المنهجي يُعدّ تصحيحاً بنائياً، ما دام مبنياً على تشخيص دقيق وغاية واضحة، لا على الهوى أو العجلة[27].

- النسف غير المبرر بدافع القلق أو العجلة: أما إذا كان العمل قائماً على أساس متين ولا يحتاج سوى إلى إصلاح موضع بعينه أو تحسين جزئي، فأقدم صاحبه على إتلافه بالكامل لمجرّد تعثر عابر أو ضيق صدر، فذلك يُشبه في مآله صورة «النقض»؛ إذ يترك الجهد المتراكم مفككاً دون أن يضمن بديلاً أصلح.

---

(9) يُقارن ذلك في هندسة البرمجيات بمفهوم إعادة الهيكلة المنضبطة (Refactoring) التي تحافظ على السلوك الجوهري للنظام وتُحسّن بنيته الداخلية دون هدم عبثي للمنجز.

• • التمييز بين «الخطأ القابل للمعالجة» و«العيب البنيوي»: المنهجية الرصينة تقتضي فحص طبيعة الخلل أولاً: هل هو ثغرة موضعية يمكن ترميمها، أم خلل في الأساس يفرض إعادة الإحكام؟ فمعرفة طبيعة الخلل هي التي تحول دون الخلط بين الصيانة الواعية والهدم الضار.

ثانياً: في الكتابة والإبداع الأدبي والعمل المؤسسي

في الإبداع الأدبي والكتابة الفكرية والعمل المؤسسي، تتجلى هذه المعادلة بوضوح في كيفية التعامل مع النصوص والمشاريع بعد نضجها النسبي:

• • التنقيح والتهذيب مقابل الإلغاء الكلي: النص الأدبي أو الدراسة الفكرية قد تحتاج إلى مراجعة وتهذيب وتقوية لبعض المواضع، وهذا من صميم الإتقان؛ لكن الانقلاب على عملٍ مكتمل البناء لمجرّد ملاحظة عابرة أو تقلب مزاجي يُفقد الكاتب نصاً كان قابلاً للنضج، ويُدخله في دوامة البداية المتكررة دون اكتمال.

• • الحذر من «الاستسهال والنسف» أمام الصعوبات الدقيقة: قد يجد الكاتب أو القائد في مشروعٍ ما عقبة دقيقة في مراحله المتقدمة، فيميل إلى إلغاء الفكرة أو تفكيكها من جذورها هرباً من مشقة التعديل الدقيق، بينما يقتضي الإحكام صبراً على معالجة التفاصيل وتثبيت الخيوط المتماسكة.

• • حفظ التراكم المعرفي والمؤسسي: سواء في مسيرة فردية أو تجربة مؤسسية، فإن التراكم الحقيقي يقوم على البناء فوق ما أُحكم وتطويره، لا على نقض كل ما سبق كلما تبدلت الظروف أو طرأ عارض.

الخاتمة: النتائج والتوصيات

أولاً: أبرز النتائج

- 1. الضبط المنهجي بين المعنى الأصلي والاستدعاء البلاغي: تبيّن أن المعنى التشريعي والخلقي المباشر للآية الثانية والتسعين من سورة النحل يتركز في النهي عن نقض العهود والأيمان بعد توكيدها، واتخاذها وسيلة للمكر والخديعة عند تغليب اعتبار القوة والكثرة. وفي الوقت ذاته، يمكن استثمار الصورة التصويرية للآية («نقض الغزل من بعد قوة أنكاثاً») في التحليل النفسي والبلاغي والعملي، بشرط الحفاظ الواضح على الفصل بين التفسير النصّي للآية وبين المقاربة التمثيلية في سياقات أخرى.

- 2. عمق الدلالة اللغوية والتصويرية: أظهر التحليل المعجمي والتركيبي أن المفردات القرآنية—مثل النقض، الغزل، القوة، الأنكاث، الدخل، الأربى، الابتلاء—تنسج مشهداً حسياً متكاملاً يُجسّد مفارقة تبديد الجهد المتراكم بعد بلوغه مرحلة القوة والإحكام.

- 3. التمييز بين «التفكيك البنائي» و«الهدم الانفعالي»: كشفت الدراسة النفسية والتطبيقية أن العودة إلى العمل أو تفكيكه ليست على مرتبة واحدة؛ فالتفكيك البنائي أو إعادة الهيكلة القائمة على تشخيص موضوعي لخلل حقيقي أو سعي واعي للتجويد تمثّل صيانة ونضجاً، بينما يمثّل الهدم المتسرّع بدافع الانفعال أو الضجر أو النقد غير المنصف هدراً للجهد وتفريطاً في المنجز.

- 4. أهمية الاتزان الداخلي أمام المغريات والنقد: أشارت الآية في سياقها النفسي والاجتماعي إلى أثر تغليب العوامل الطارئة أو القوة العارضة، وهو ما ينعكس في حياة الفرد والباحث والمبدع حين

يواجه ضغوطاً أو نقداً خارجياً يختبر ثباته وقدرته على التمييز بين ما يستحق التعديل وما يجب الحفاظ عليه.

ثانياً: التوصيات

- 1. الموازنة بين الواقعية الإنسانية والمثالية في تقويم المنجز: يُوصى بالوعي بالفرق الجوهري بين الواقعية التي تقرّ بأن الإنسان يصيب ويخطئ، وأن الخطأ أو النقص الجزئي جزء طبيعي من مسار العمل يفتح باب التصحيح والتقويم والتطوير، وبين المثالية المفرطة التي ترفض أي تعثر أو نقص، فتنقلب إلى جلد للذات وإهدارٍ للجهد المتراكم؛ إذ إن قبول الطبيعة البشرية في حدودها الواقعية يعين على التعديل المتزن دون تفريط في أصل البناء.
- 2. اعتماد معيار التشخيص الموضوعي قبل إعادة البناء: يُوصى في العمل البحثي والتقني والإبداعي بتحديد طبيعة الخلل بدقة قبل الإقدام على تفكيك العمل أو إلغائه: هل هو عيب بنيوي يتطلب إعادة تأسيس، أم ثغرة جزئية يمكن إصلاحها بالترميم والتطوير؟
- 3. تنمية الوعي النفسي في التعامل مع النقد: يُنصح ببناء ميزان داخلي موضوعي يمكّن صاحب العمل من فرز النقد البنّاء الذي يثري الإنجاز، عن الملاحظات الانطباعية أو الحادة التي قد تثير ردود فعل متسرعة تؤدي إلى نسف عملٍ متين في جوهره.
- 4. حفظ التراكم المعرفي والمنهجي: يُستحسن في المشاريع الفكرية والعملية ترسيخ ثقافة «البناء التراكمي» وتوثيق مراحل العمل وتطوراته، بدلاً من إتلاف المسودات أو البنى القائمة لمجرّد تحولٍ طارئ في الرؤية أو المزاج.

- 5. مواصلة الدراسات البينية: يُقترح توسيع البحث في البلاغة النفسية للنصوص القرآنية والأدبية، لدراسة كيفية انتقال الصور الحسية من النص إلى الإدراك الإنساني، وكيف تسهم في ضبط السلوك وتقويم الانفعال.

ثبت المصادر والمراجع

- 1. القرآن الكريم (رواية حفص عن عاصم).
- 2. ابن عاشور، محمد الطاهر: التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984م.
- 3. ابن منظور، محمد بن مكرم: لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، 1414هـ.
- 4. بيك، أرون: العلاج المعرفي والاضطرابات الانفعالية، ترجمة عادل مصطفى، دار النهضة العربية، بيروت، 2000م.
- 5. الجرجاني، عبد القاهر: أسرار البلاغة، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، 1991م.
- 6. الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد: المفردات في غريب القرآن، تحقيق صفوان عدنان الداودي، دار القلم، دمشق، ط1، 1412هـ.
- 7. الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله: البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1957م.
- 8. الزمخشري، جار الله محمود بن عمر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، 1407هـ.
- 9. الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى: الموافقات، تحقيق مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، الخبر، ط1، 1997م.

• 10. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، القاهرة، 2001م.

• 11. الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب: القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط8، 2005م.

• 12. قطب، سيد: التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، القاهرة، ط17، 2004م.

• 13. القزويني، الخطيب جلال الدين محمد بن عبد الرحمن: الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، ط3.

8–بنية الشخصية الباطنية الملتفة

مقاربة نفسية وسلوكية في آليات القناع، والاستنزاف المقلوب، والإسقاط الدفاعي



ملخص البحث

تتناول هذه الدراسة بالتحليل النفسي والسلوكي نمط «الشخصية الباطنية الملتفة»؛ وهي شخصية مركبة تستعصي على الفهم المباشر مهما طال الحوار معها، إذ تتوسل بقناع من السعادة الدائمة والهدوء المصطنع لبناء مناخ زائف من الأمان النفسي لدى المحيطين بها. وتكشف الدراسة عن الآلية المحورية التي تعتمدها هذه الشخصية، والمتمثلة في «الإقناع المقلوب»؛ حيث تُصاغ النصائح في قالب الحرص والإيثار، بينما تخدم في باطنها مصالحها الذاتية وتستنزف جهد الطرف الآخر ومكانته. كما ترصد الدراسة ردة فعل هذه الشخصية عند مواجهتها بالحقائق والأدلة، ولجوءها الفوري إلى «الإسقاط النفسي» واتهام الضحية بالعدوانية والسذاجة، وتختتم الدراسة بوضع إطار عملي واستراتيجيات وقائية ذكية لتحييد أثرها وحماية الوعي الذاتي من التلاعب.

مقدمة

تُعد الشخصية الباطنية المركبة من أكثر الأنماط الإنسانية تعقيداً وعصياناً على الكشف المبكر في التفاعلات الاجتماعية والمهنية والأدبية؛ فهي لا تظهر بوجه صدامي صريح يسهل الحذر منه، بل تتدثر

بستائر كثيفة من المودة، والتجمّل المستمر، والنصح الموجه[28]. إن خطورة هذا النمط تكمن في الأثر الإدراكي الذي يتركه في نفس المتعامل معه؛ فكلما جالسته، غادرت المجلس وأنت تشعر بطمأنينة غامرة وثقة بأنك في كنف ناصح أمين، قبل أن تكتشف بعد فوات الأوان أن تلك النصائح لم تكن سوى قنوات خفية لتوجيه مسارك نحو خدمة مصالحه الخاصة.

وتسعى هذه الورقة البحثية إلى تفكيك البنية الداخلية لهذه الشخصية عبر أربعة محاور متكاملة:

يتناول الأول طبيعة القناع والتجمّل بالسعادة الدائمة، ويحلل الثاني هندسة الإقناع المقلوب والاستنزاف غير المباشر، ويرصد الثالث آليات الإسقاط الدفاعي عند المواجهة، بينما يقدم الرابع منهجية وقائية للتعامل الذكي معها.

أولاً: البنية النفسية وقناع السعادة المطلقة (هندسة التجمّل)

1. السعادة كترس دفاعي (The Facade of Perpetual Happiness): تتبنى الشخصية الباطنية مظهراً خارجياً زاهياً وواثقاً يفيض بالهدوء والرضا الدائم، مما يوحي للناظر بأنها تعيش حالة من التوازن الوجودي المطلق. غير أن القراءة النفسية المتعمقة تكشف أن هذا التجمّل المستمر لا ينبع من سلام داخلي حقيقي، بل يعمل بوصفه «الذات الزائفة»[29] التي تؤدي وظيفة الترس الدفاعي الصلب؛

[28] يُقصد بالشخصية الباطنية في التحليل السلوكي النمط الذي يمارس ازدواجية مقصودة بين البنية الظاهرة (المعلنة) والبنية العميقة (المضمرة)، بحيث يعمل السلوك الظاهر كحاجز تمويهي يخفي الدوافع الحقيقية.

[29] مفهوم «الذات الزائفة» (False Self) صاغه المحلل النفسي دونالد وينيكوت (Donald Winnicott) عام 1960م، ليشير إلى القناع الدفاعي الذي يبنيه الفرد استجابةً لضغوط البيئة أو لإخفاء هشاشته الداخلية وحماية ذاته الحقيقية من الانكشاف.

فهي تحجب هشاشتها الداخلية وحساباتها الدقيقة، وتمنع أي محاور من النفاذ إلى جوهرها مهما طالت جلسات الحوار.

2. الارتباط بالنرجسية الخفية (Covert Narcissism): تتقاطع هذه البنية في كثير من ملامحها مع ما يُعرف في علم النفس العيادي بـ «النرجسية الخفية أو الهشة»[30]؛ إذ يتخلى صاحبها عن استعراض القوة الفجّ لصالح صورة الحكيم المتزن الذي يترفع عن الصغائر، بينما يدير في الخفاء شبكة معقدة من التوازنات التي تضمن تفوقه واستحواذه الصامت على المكاسب.

3. التهيئة العاطفية للبيئة المحيطة: تعمد هذه الشخصية إلى خلق مناخ عام يبعث على الارتياح النفسي؛ فحسن الإصغاء، والابتسامة المحسوبة، والثناء المبطن، كلها أدوات تُستخدم لتعطيل حاسة الشك لدى الطرف الآخر، وإدخاله في حالة من الاسترخاء المعرفي تجعله قابلاً لتلقي التوجيهات دون تمحيص.

ثانياً: آلية «الإقناع المقلوب» والاستنزاف المبطن

يمثل «الإقناع المقلوب» (Inverted Persuasion) الجوهر السلوكي الأخطر لدى الشخصية الباطنية؛ ويُقصد به قدرتها الفائقة على صياغة مصلحتها الذاتية في قالب نصيحة مخلصة تُقدَّم للطرف الآخر على أنها خشية عليه وحرص على مستقبله.

---

[30] تختلف النرجسية الخفية (Covert/Vulnerable Narcissism) عن النرجسية الظاهرة في أن صاحبها يتجنب التباهي الفجّ، ويتقن لعب دور المتواضع الهادئ أو الحكيم المسالم، بينما يحتفظ في داخله بشعور عالٍ بالاستحقاق ورغبة محمومة في السيطرة وتوجيه الآخرين لصالحه. انظر: كريغ مالكين، إعادة التفكير في النرجسية، ترجمة مكتبة جرير، الرياض، 2018م، ص 64.

1. زراعة القرار لا فرضه: لا تمارس هذه الشخصية الإكراه المباشر؛ لأن الإكراه يولّد المقاومة. بدلاً من ذلك، تعتمد أسلوب «الإيحاء الموجه»[31]، فتدرس نقاط الضعف الخفية لدى محاورها — كرغبته في الراحة، أو خوفه من المجازفة، أو حاجته للاستقرار — ثم تقترح عليه التنازل عن بعض صلاحياته أو مساراته بدعوى إراحته وتخفيف الأعباء عنه، حتى يشعر الضحية أنه هو صاحب القرار الحر.

2. التكلفة المؤجلة واكتشاف الخسارة المتأخر: يكمن دهاء هذا النمط في أن نتائج التوجيه المقلوب لا تظهر في اللحظة الآنية؛ ففي المدى القصير يشعر المنصوح بالارتياح لأنه تخلّص من عبء ما، بينما تتراكم المكاسب المادية أو المعنوية أو المهنية في رصيد الناصح. ولا يكتشف الطرف الآخر حقيقة الاستنزاف إلا بعد انقضاء الوقت وتثبيت الوقائع، حين يجد نفسه قد تراجع إلى الهامش بينما تصدّر الناصح المشهد باسم الحرص والمؤازرة.

ثالثاً: درع الدفاع الأخير — «الإسقاط النفسي» وقلب الطاولة عند المواجهة

حين تتكشف خيوط اللعبة وتتوافر الأدلة المادية أو المنطقية التي تثبت التلاعب، ويقرر الطرف المتضرر مواجهة الشخصية الباطنية بحقيقتها، فإنها لا تملك القدرة النفسية على الاعتراف أو الاعتذار؛ لأن الاعتراف يعني انهيار قناع الكمال الذي بنته طوال حياتها. وهنا تُفعّل أعتى آليات الدفاع النفسي:

[31] يُصنَّف هذا السلوك ضمن استراتيجيات «التأثير الاجتماعي الخفي» (Covert Social Influence)، حيث يُعاد تأطير الخيارات (Framing) أمام المستهدف بحيث يبدو الخيار الذي يخدم المتلاعب وكأنه الخيار الوحيد الآمن والمنطقي للضحية.

1. تفعيل آلية الإسقاط النفسي (Psychological Projection): تُعرَّف آلية الإسقاط في التحليل النفسي بأنها حيلة دفاعية لاشعورية أو شبه واعية يقوم فيها الفرد بإلصاق دوافعه العدوانية أو نواياه الملتوية بالطرف الآخر لتبرئة ذاته[32]. فبدلاً من مناقشة الوقائع والأدلة المطروحة، تقفز الشخصية الباطنية فوق الحدث لتُحاكم نوايا الضحية وطريقة تفكيره.

2. ثالوث الاتهام المضاد (العدوانية، عدم التفهم، السذاجة): تتبع هذه الشخصية نمطاً خطابياً ثابتاً لقلب الطاولة وإرباك الخصم عبر وسمه بثلاث صفات متلازمة:

- الاتهام بالعدوانية والارتياب: تصوير مطالبة الضحية بحقه أو كشفه للتلاعب على أنه هجوم عدواني غير مبرر، ونكران للجميل، ودليل على نفسية مريضة تبحث عن المؤامرات في ثنايا الوفاء.
- الاتهام بعدم التفهم وضيق الأفق: التعالي المعرفي على الطرف الآخر وإيهامه بأنه يفتقر إلى النضج والعمق الكافيين لإدراك المقاصد النبيلة والبعيدة التي كانت تحرك النصيحة.
- الاتهام بالسذاجة والسطحية: توجيه ضربة مباشرة لثقة الضحية بعقله عبر استصغار تقديراته؛ وهو ما يُعرف بظاهرة «التلاعب بالعقول أو التشكيك في الإدراك» (Gaslighting)[33]، فيخرج

---

[32] أشار سيغموند فرويد وآنا فرويد إلى «الإسقاط» (Projection) بوصفه إحدى أهم آليات الدفاع التي تلجأ إليها الأنا لحماية صورتها المثالية عبر نسب الصفات المرفوضة إلى العالم الخارجي. انظر: آنا فرويد، الأنا وآليات الدفاع، ترجمة صلاح مخيمر وعبده ميخائيل، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1972م، ص 118.

[33] التلاعب بالعقول (Gaslighting) هو نمط من الإساءة النفسية الخفية يهدف إلى زرع الشك في ذهن الضحية وجعله يرتاب في ذاكرته وإدراكه وسلامة حكمه على الأمور. انظر: روبن ستيرن، تأثير التلاعب بالعقول (The Gaslight Effect)، ترجمة دار التنوير، بيروت، 2020م، ص 29.

المعتدي محافظاً على ابتسامته الباردة وصورته البهية، بينما يغادر الضحية مثقلاً بالشك في سلامة حكمه.

رابعاً: استراتيجيات التعامل الذكي والوقائي مع الشخصية الباطنية

إن التعامل مع الشخصية الباطنية الملتفة لا ينجح عبر المواجهة العاطفية المباشرة أو محاولات الإقناع الأخلاقي؛ لأنها مبرمجة على تحويل كل حوار صريح إلى ساحة لإعادة تدوير الاتهامات. لذا، يتطلب تحييد خطرها اتباع منهجية وقائية تقوم على خمس ركائز:

1. الفصل المعرفي بين النبرة والمضمون (Cognitive Decoupling): تتمثل القاعدة الذهبية في تحييد أثر الدفء المصطنع وهدوء النبرة عند تقييم أي نصيحة. يجب إخضاع كل مقترح يُقدَّم تحت ستار الإيثار والشفقة لمصفاة التحليل المنطقي الصارم عبر سؤالين: «من المستفيد الفعلي على المدى البعيد من هذا القرار؟ وما الصلاحيات أو المكتسبات التي أتنازل عنها مقابل هذه الراحة المؤقتة؟»، مع الامتناع التام عن تفويض هذه الشخصية في إدارة الملفات الحساسة أو المفاوضات.

2. تقنية «الحجر الرمادي» والغموض الاستراتيجي (The Gray Rock Method): تعتمد الشخصية الباطنية على جمع المعلومات حول مخاوف محاورها ونقاط ضعفه لتصمم من خلالها مصائدها الناعمة[34]. لذا، فإن تجفيف منابع البوح الشخصي والمهني أمامها، والاكتفاء بردود مقتضبة ومحايدة

[34] تقنية «الحجر الرمادي» (Gray Rock Method) هي استراتيجية سلوكية تهدف إلى جعل الشخص غير مثير للاهتمام ومغلقاً أمام المتلاعبين عاطفياً عبر تقديم ردود مقتضبة ومحايدة خالية من الانفعال أو البوح الشخصي، مما يقطع عن المتلاعب التغذية المعلوماتية والعاطفية التي يقتات عليها.

خالية من التبرير (مثل: «سأدرس الأمر»، «لديّ ترتيبات خاصة»)، يحرمها من المادة الخام التي تبني بها خطط التوجيه المقلوب.

3. التوثيق المادي الصامت (Silent Documentation): لأن هذه الشخصية بارعة في إنكار الاتفاقات الشفهية وقلب الحقائق عند الانكشاف، فإن تحويل كافة التعاملات، والمقترحات، وتوزيع الأدوار إلى صيغ مكتوبة وموثقة (عبر المراسلات الرسمية أو العقود الواضحة) يشكّل مرجعاً صلباً يقطع الطريق على محاولات طمس الوقائع أو الادعاء بسوء الفهم.

4. تجنب فخ «المواجهة التطهيرية» وإدارة الانسحاب الهادئ: محاولة انتزاع اعتراف صريح من الشخصية الباطنية أو إقناعها بخطئها وجهاً لوجه غالباً ما تنتهي باستنزاف الطرف الصادق نفسياً. لذا، فإن الاستراتيجية الأنجع هي التخلي عن رغبة كشف قناعها أمام نفسها، واللجوء إلى «الانسحاب التدريجي غير المعلن» عبر تقليص مساحات التلاقي وسحب الصلاحيات بصمت، دون إعلان قطيعة صاخبة تمنحها فرصة لعب دور الضحية النبيلة أمام المحيطين.

5. التحصين النفسي ضد الإسقاط: عندما تبدأ هذه الشخصية بإطلاق أحكامها الجاهزة عند شعورها بفقدان السيطرة (كالاتهام بضيق الأفق أو السذاجة)، ينبغي إدراك أن هذه الأوصاف ليست تقييماً موضوعياً لشخصية المتلقي، بل هي انعكاس لأزمتها الداخلية وفشل أدواتها في التوجيه الخفي. إن الثبات الانفعالي وعدم الانجرار إلى دائرة الدفاع عن النفس يُفقد سلاح الإسقاط فاعليته تماماً.

خاتمة

تخلص هذه الدراسة إلى أن الشخصية الباطنية الملتفة تمثل نموذجاً مركباً يمارس «العنف الناعم» والتلاعب البنيوي بالوعي تحت غطاء المودة والنصح والتجمّل بالسعادة الدائمة. وإن خطورتها لا تكمن في دهائها الفردي فحسب، بل في قدرتها على توظيف القيم الإيجابية —— كالثقة، وحسن الظن، والرغبة في التعاون —— بوصفها ثغرات للنفاذ والاستنزاف، ثم تحصين ذاتها بآلية الإسقاط النفسي عند الانكشاف. ومن ثمّ، فإن الوعي بتشريح هذه الشخصية وتطبيق استراتيجيات الفصل المعرفي والتوثيق الصامت والانسحاب الهادئ، يمثل ضرورة معرفية ونفسية لحماية الاستقلال الذاتي وصيانة العلاقات الإنسانية من التزييف.

قائمة المصادر والمراجع

١. ستيرن، روبن: تأثير التلاعب بالعقول (The Gaslight Effect)، ترجمة دار التنوير، بيروت، الطبعة الأولى، 2020م.

٢. فرويد، آنا: الأنا وآليات الدفاع، ترجمة صلاح مخيمر وعبده ميخائيل، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1972م.

٣. مالكين، كريغ: إعادة التفكير في النرجسية: كيف تتعامل مع النرجسيين وتفهمهم، ترجمة مكتبة جرير، الرياض، 2018م.

٤. Winnicott, Donald W.: "Ego Distortion in Terms of True and False Self", in The Maturational Processes and the Facilitating Environment, International Universities Press, New York, 1965.

٥. Simon, George K.: In Sheep's Clothing: Understanding and Dealing with Manipulative People, Parkhurst Brothers Publishers, Little Rock, 2010.

9–دراسة تأصيلية عقدية وتربوية

فقه الاستعانة

التأصيل الشرعي، والضوابط العقدية، والآثار التربوية في ضوء قوله تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾



المبحث الأول: المفهوم اللغوي والاصطلاحي، وأسرار النظم القرآني

أولاً: التعريف اللغوي والاصطلاحي لفقه الاستعانة

تُشتق كلمة «الاستعانة» في اللغة العربية من الجذر الثلاثي (ع و ن)، والسين والتاء للطلب؛ أي طلب العون والمؤازرة والمظاهرة على الأمر، يُقال: استعان به، فأعانه، أي أمدّه بالقوة والقدرة على إنجاز ما يعجز عنه بمفرده[1]. أما في الاصطلاح الشرعي، فيُقصد بـ فقه الاستعانة: الفهم الدقيق والمنضبط بالشرع والعقل لأحكام طلب العون والمدد، وتجريد القلب من الالتفات إلى غير الله تعالى في جلب المنافع ودفع المضار، مع مباشرة الأسباب المشروعة دون اعتمادٍ قلبيٍّ عليها[2]. وهو فقهٌ يجمع بين التوحيد الخالص في التوجه، والواقعية العملية في السلوك البشري، إذ يضع العبد في منزلة العبودية الحقة التي لا ترى لنفسها حولاً ولا طولاً إلا بالله سبحانه.

ثانياً: الأسرار البلاغية والعقدية في قوله تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

تُعدّ هذه الآية الكريمة من سورة الفاتحة محور القرآن الكريم وسرّه الجامع؛ وقد قرر المحققون من العلماء أن سرّ الخلق والأمر، والكتب المنزلة، والشرائع، يدور كله حول هاتين الكلمتين[3]. ويتجلى الإعجاز البياني والتشريعي في نظم الآية من خلال عدة وجوه رئيسة:

1. تقديم المعمول لإفادة القصر والاختصاص: قُدِّم الضمير المنفصل «إياك» على الفعلين «نعبد» و«نستعين»، وهو أسلوب عربي أصيل يفيد الحصر؛ أي: لا نعبد إلا إياك، ولا نستعين إلا بك[4].

2. تقديم الغاية على الوسيلة: قُدمت العبادة على الاستعانة لأن العبادة هي الغاية العظمى التي خُلق لها الثقلان، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56]، بينما الاستعانة هي الوسيلة الموصلة إلى تحقيق تلك الغاية؛ إذ لا قدرة للعبد على القيام بحق العبودية إلا بإعانة المعبود وتوفيقه(5).

3. إطلاق الفعل «نستعين» دون تقييد بمفعول: حذف المفعول به للفعل «نستعين» ليفيد العموم والشمول؛ فيشمل طلب العون من الله في كل شأن من شؤون الدين والدنيا، وفي جميع العبادات والمهمات، صغيرها وكبيرها(6).

الهوامش والتوثيق:

(1) ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، 1414هـ، ج 13، ص 298 (مادة: عون).

(2) ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، 1416هـ، ج 1، ص 94.

(3) المرجع نفسه، ج 1، ص 93؛ وانظر: ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، مجموع الفتاوى، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، 1416هـ، ج 14، ص 4-5.

(4) الزمخشري، محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، 1407هـ، ج 1، ص 14.

(5) الرازي، فخر الدين محمد بن عمر، مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، 1420هـ، ج 1، ص 213.

(6) السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1420هـ، ص 39.

المبحث الثاني: الركائز الأساسية لفقه الاستعانة والتوازن بين التوكل والأسباب

أولاً: التبرؤ من الحول والقوة والافتقار التام إلى الله

يقوم فقه الاستعانة على أساس معرفي وقلبي يتمثل في إدراك العبد حقيقة فقره الذاتي وعجزه الأصيل، مقابل غنى الله المطلق وقدرته التامة. فالعبد لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، ولا يقدر على تحصيل طاعة أو دفع معصية إلا بمدد إلهي وتوفيق رباني[1]. وهذا المعنى هو جوهر الكنز الذي أرشد إليه النبي ﷺ بقوله: «أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى كَلِمَةٍ هِيَ كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ؟ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ»[2]؛ أي لا تحوّل للعبد من حال إلى حال، ولا قوة له على الثبات أو الفعل إلا بالله عز وجل.

ثانياً: التوازن الدقيق بين الاستعانة والأخذ بالأسباب

من الأخطاء المنهجية في فهم الاستعانة أن تُفسَّر على أنها تواكلٌ أو تعطيلٌ للأسباب المادية والكونية. ففقه الاستعانة الصحيح يوجب الجمع بين ركنين متلازمين لا ينفكان:

- مباشرة الأسباب المشروعة بالبدن والجوارح: امتثالاً لأمر الله تعالى، واقتداءً بسنة الأنبياء، كالتداوي، وطلب الرزق، والإعداد العلمي والمادي[3].

• الاعتماد الكلي على الله بالقلب والروح: بحيث يعتقد العبد أن السبب مجرد أداة سخرها الله، لا تملك التأثير بذاتها، وأن النتيجة بيد مسبب الأسباب سبحانه. وقد لخص النبي ﷺ هذه المعادلة التربوية بقوله: «احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجَزْ»[4]؛ فجمع بين الحرص على السبب النافع، والاعتماد القلبي على الله، ونبذ العجز والكسل.

ثالثاً: الاستعانة وسيلة لتحقيق مقام الإحسان في العبادة

إن المسلم حين يستعين بالله على طاعته، فإنه ينتقل بعبادته من مجرد حركات ظاهرية أو تكاليف ثقيلة إلى عبادة ميسّرة مشبعة بالحضور القلبي. ولذلك أوصى النبي ﷺ معاذ بن جبل رضي الله عنه بقوله: «يَا مُعَاذُ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ، فَلَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»[5]. وهذا الدعاء يرسخ حقيقة أن حسن العبادة ذاته منحة ربانية تُطلب بالاستعانة الدائمة.

الهوامش والتوثيق:

(1) ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، العبودية، تحقيق: محمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، ط7، 1426هـ، ص 45-47.

(2) البخاري، محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح، دار طوق النجاة، ط1، 1422هـ، كتاب الدعوات، رقم: 6384، ج 8، ص 81؛ ومسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، دار إحياء التراث العربي، كتاب الذكر والدعاء، رقم: 2704، ج 4، ص 2076.

(3) الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد، إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت، ج 4، ص 263 (كتاب التوحد والتوكل).

(4) مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، مرجع سابق، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله، رقم الحديث: 2664، ج 4، ص 2052.

(5) أبو داود، سليمان بن الأشعث، سنن أبي داود، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، كتاب الصلاة، رقم الحديث: 1522، ج 2، ص 86 (صححه الألباني).

المبحث الثالث: الضوابط العقدية للاستعانة بالمخلوقين وتفصيل أحكامها

يُعدّ التفريق بين الاستعانة المشروعة والاستعانة الممنوعة من أدق مسائل التوحيد العملي في حياة المسلم. وقد وضع علماء العقيدة والفقه معايير منضبطة تضبط تعامل الإنسان مع الأسباب البشرية والمادية، كما يوضح الجدول التحليلي الآتي[1]:

نوع الاستعانة	الحكم الشرعي	الضوابط والشروط المعتبرة	الأمثلة التطبيقية
1. الاستعانة بالله وحده	واجب وتوحيد خالص (أصل العبادة)	تعلق القلب بالله وحده في جلب كل خير ودفع كل شر، في الأمور الدينية والدنيوية.	طلب الهداية، والثبات على الدين، وتفريج الكربات، والرزق، والشفاء الحقيقي.
2. الاستعانة بالمخلوق في أمر يقدر عليه	جائزة ومشروعة (وقد تُندب في البر)	يشترط أربعة ضوابط مجتمعة: أن يكون المستعان به (حياً)، و(حاضراً)، و(قادراً)، مع اعتقاد أنه (مجرد سبب) لا ينفع بذاته (2).	الاستعانة بالطبيب للعلاج، أو بالمهندس للبناء، أو بالصديق لحمل متاع: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾.
3. الاستعانة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله	محرمة وشرك أكبر (مناقض للتوحيد)	طلب أمور غيبية أو كونية لا تدخل تحت قدرة البشر، أو طلب العون من الأموات والغائبين.	طلب الرزق، أو الولد، أو غفران الذنوب، أو الشفاء المطلق من الأموات أو القبور (3).

نوع الاستعانة	الحكم الشرعي	الضوابط والشروط المعتبرة	الأمثلة التطبيقية
4. الاستعانة بالمخلوق على الإثم والعدوان	محرمة شرعاً (معصية وتعدٍّ)	أن يكون موضوع الاستعانة فعلاً محرماً يضر بالنفس أو بالغير، ولو كان المستعان به قادراً.	الاستعانة بشخص لإيذاء بريء، أو التزوير، أو أكل أموال الناس بالباطل.

تنبيه فقهي حول أدب الاستعانة بالمخلوقين:

حتى في الاستعانة الجائزة بالمخلوقين في الأمور المقدور عليها، ندب الشرع المسلم إلى التعفف والاستغناء عن الناس ما أمكنه ذلك، وألا يكثر من سؤال الخلق إلا عند الحاجة الحقيقية، صيانةً لكرامته، وحفظاً لقلبه من التعلق بغير الله تعالى؛ فقد بايع النبي ﷺ نفراً من أصحابه على ألا يسألوا الناس شيئاً، فكان أحدهم يسقط سوطه وهو على راحلته فلا يسأل أحداً أن يناوله إياه[4].

الهوامش والتوثيق:

(1) ابن عثيمين، محمد بن صالح، القول المفيد على كتاب التوحيد، دار ابن الجوزي، الدمام، ط2، 1424هـ، ج 1، ص 288–291.

(2) آل الشيخ، عبد الرحمن بن حسن، فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، تحقيق: محمد حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، 1377هـ، ص 145.

(3) ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة، تحقيق: ربيع بن هادي المدخلي، دار اللواء، الرياض، ط1، 1404هـ، ص 112-115.

(4) مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، مرجع سابق، كتاب الزكاة، باب كراهة المسألة للناس، رقم الحديث: 1043، ج 2، ص 721 (حديث عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه).

المبحث الرابع: الثمرات التربوية والآثار النفسية والسلوكية لفقه الاستعانة

لا يقف أثر فقه الاستعانة عند حدود التصور العقدي النظري، بل يمتد ليشكّل بناءً نفسياً وتربوياً متوازناً يظهر أثره في سلوك الفرد وعلاقته بنفسه وبالمجتمع:

أولاً: التخلص من آفَتَي العُجب والغرور

يعاني الإنسان المعاصر كثيراً من تضخم «الأنا» والاعتداد بالقدرات الذاتية أو المؤهلات العلمية والمادية. وهنا يأتي فقه الاستعانة ليعمل كصمام أمان قلبي؛ فكما أن «إياك نعبد» تطهّر القلب من الرياء وتصرف العمل عن الخلق إلى الحق، فإن «إياك نستعين» تطهّر النفس من العُجب والكِبر، لأن العبد يوقن أن أي نجاح أو إتقان حققه إنما هو محض توفيق من الله وإعانة منه، فلا يغترّ بعلمه كما اغترّ قارون بقوله: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص: 78][1].

ثانياً: تحقيق السكينة النفسية والطمأنينة عند الشدائد

إن استشعار معية الله وعونه يمنح المؤمن حصانة نفسية عالية في مواجهة الأزمات والمصاعب. فحين يدرك الإنسان أنه لا يواجه تحديات الحياة بضعفه البشري المحدود، بل يستند إلى ركن شديد وقوة لا تُغلب، يزول عنه القلق المرضي واليأس، ويحل محلهما الرضا والسكينة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: 36][2].

ثالثاً: التحرر من التبعية والذل للمخلوقين

يورث فقه الاستعانة عزة نفس كريمة؛ فمن تحقق بصدق الاستعانة بالله لم يذلّ لمخلوق، ولم يرهن كرامته لأصحاب النفوذ أو المال، لأنه يعلم أن قلوب العباد ونواصيهم بيد الله وحده، وأن المخلوق لا يملك أن ينفعه أو يضره إلا بإذن الله[3].

رابعاً: استدامة الطاقة الإيجابية والمثابرة في العمل

المستعين بالله لا يعرف الفتور ولا الانكسار عند تعثر الأسباب؛ لأنه إذا أغلق بابٌ من أبواب الأسباب المادية، ظل باب مسبب الأسباب مفتوحاً أمامه بالدعاء والتوكل والبحث عن بدائل مشروعة، مما يمده بطاقة متجددة على السعي والبناء والإصلاح[4].

الهوامش والتوثيق:

(1) ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين، مرجع سابق، ج 1، ص 96؛ وانظر: ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج، صيد الخاطر، دار القلم، دمشق، ط1، 1425هـ، ص 214.

(2) ابن رجب الحنبلي، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد، جامع العلوم والحكم، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وإبراهيم باجس، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط7، 1422هـ، ج 1، ص 465.

(3) المرجع نفسه، ج 1، ص 470-472.

(4) الغزالي، أبو حامد، إحياء علوم الدين، مرجع سابق، ج 4، ص 271.

قائمة المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم.

2. آل الشيخ، عبد الرحمن بن حسن (1377هـ)، فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، تحقيق: محمد حامد الفقي، القاهرة: مطبعة السنة المحمدية.

3. أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني (د.ت)، سنن أبي داود، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، صيدا – بيروت: المكتبة العصرية.

4. البخاري، محمد بن إسماعيل (1422هـ)، الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، ط1، دار طوق النجاة.

5. ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم (1404هـ)، قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة، تحقيق: ربيع بن هادي المدخلي، ط1، الرياض: دار اللواء للنشر والتوزيع.

6. ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم (1416هـ)، مجموع الفتاوى، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.

7. ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم (1426هـ)، العبودية، تحقيق: محمد زهير الشاويش، ط7، بيروت: المكتب الإسلامي.

8. ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (1425هـ)، صيد الخاطر، تحقيق: حسن السماحي سويدان، ط1، دمشق: دار القلم.

9. ابن رجب الحنبلي، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد (1422هـ)، جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وإبراهيم باجس، ط7، بيروت: مؤسسة الرسالة.

10. الرازي، فخر الدين محمد بن عمر (1420هـ)، مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، ط3، بيروت: دار إحياء التراث العربي.

11. الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر (1407هـ)، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ط3، بيروت: دار الكتاب العربي.

12. السعدي، عبد الرحمن بن ناصر (1420هـ)، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، ط1، بيروت: مؤسسة الرسالة.

13. ابن عثيمين، محمد بن صالح (1424هـ)، القول المفيد على كتاب التوحيد، ط2، الدمام: دار ابن الجوزي.

14. الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد (د.ت)، إحياء علوم الدين، بيروت: دار المعرفة.

15. ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر (1416هـ)، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، ط3، بيروت: دار الكتاب العربي.

16. مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (د.ت)، صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار إحياء التراث العربي.

17. ابن منظور، محمد بن مكرم (1414هـ)، لسان العرب، ط3، بيروت: دار صادر.

10–أزمة التعريب والازدواجية اللغوية في الخطاب الثقافي المعاصر

رؤية تأصيلية وخطوات عملية لتفعيل دور المجامع اللغوية وصون الأمن اللغوي



مقدمة وتمهيد إشكالي

تواجه اللغة العربية في العصر الراهن تحدياً حضارياً ومعرفياً مركباً يتمثل في التسارع غير المسبوق لإنتاج المصطلحات العلمية والتقنية في الحضارة الغربية، مقابل بطء نسبي في حركة الترجمة والتعريب المؤسسي. وقد أفرز هذا التباين الزمني ظاهرة لغوية واجتماعية لافتة في أوساط المثقفين والأكاديميين والإعلاميين، تتمثل في جنوح الحديث العربي اليومي والنخبوي نحو «الهجنة اللغوية» أو «الازدواجية التعبيرية»، حيث تتداخل الألفاظ الأجنبية مع البنية العربية بصورة عفوية أحياناً، ومتكلفة أحياناً أخرى [35]

وفي خضم هذا الواقع، تتعالى أصوات الغيورين من علماء اللغة والمثقفين مطالبةً بمساندة مجامع اللغة العربية وتطوير آلياتها، وتدارك ما يُوصف بـ «التقصير الإجرائي» في ملاحقة المصطلح الوافد قبل أن يستقر بلفظه الأجنبي على ألسنة الناطقين بالعربية. غير أن معالجة هذه الظاهرة لا تقف عند حدود إلقاء اللوم على المجامع وحدها، بل تستدعي مقاربة شاملة تتضافر فيها الجهود المؤسسية، والتربوية، والإعلامية، والرقمية، وفق خطوات عملية قابلة للتنفيذ.

أولاً: تحديث البنية المؤسسية لمجامع اللغة العربية ورقمنة مخرجاتها

[35] هنا (Code-Mixing) يُقصد بالهجنة اللغوية إدخال مفردات وتراكيب أجنبية داخل الجملة العربية دون إخضاعها لقواعد التعريب الصوتي أو الصرفي، مما يُضعف النسق النحوي والدلالي للغة الأم. انظر: نهاد الموسى، اللغة العربية في العصر الحديث: قيم الثبوت وقوى التحول، دار الشروق، عمّان، 2007م، ص 114.

لم تعد المنهجية التقليدية القائمة على اللجان الموسمية وإصدار المعاجم الورقية المتأخرة قادرة على مجاراة الإيقاع الرقمي المتسارع؛ لذا فإن إنقاذ الموقف المصطلحي يبدأ من إصلاح آليات العمل داخل المجامع اللغوية واتحادها العام:

- **تشكيل لجان الاستجابة السريعة (لجان الطوارئ المصطلحية)**: إنشاء فرق عمل دائمة ومتخصصة في الحقول المعرفية فائقة التطور (كالذكاء الاصطناعي، والأمن السيبراني، والتقنيات الحيوية، والاقتصاد الرقمي)، تكون مهمتها رصد المصطلحات الوليدة فور ظهورها عالمياً، واقتراح مقابلاتها العربية خلال أسابيع معدودة قبل شيوع اللفظ الأجنبي.

- **بناء بنك مصطلحات عربي موحد ومفتوح الوصول**: الانتقال الكامل من النشر الورقي المحدود إلى منصة رقمية تفاعلية موحدة تضم قرارات كافة المجامع العربية، وتتيح للمترجمين والباحثين والصحفيين البحث الفوري، وتلقي المقترحات والملاحظات الميدانية من المختصين.

- **تفعيل الشراكة اللامركزية مع الجامعات ومراكز الأبحاث**: اعتماد كليات اللغات والعلوم في الجامعات العربية بوصفها «مكاتب فرعية» للمجامع اللغوية، بحيث تُكلَّف بتعريب المصطلحات التخصصية في رسائل الماجستير والدكتوراه ورفعها للمجمع للاعتماد والتوحيد.

ثانياً: إحياء آليات التوليد اللغوي وتيسير شروط التعريبتمتلك اللغة العربية طاقة اشتقاقية وتوليدية هائلة مكّنتها في عصور الازدهار الحضاري من استيعاب علوم اليونان والفرس والهند؛ ومن ثم فإن العودة الواعية والمرنة إلى هذه الآليات كفيلة بسد الفجوة المصطلحية دون تكلف أو إغراب : [36]

• التوسع في القياس والاشتقاق من الجذور العربية: استثمار الأوزان الصرفية القياسية الدالة على الآلة، والمكان، والصفة، والمصدر الصناعي لصوغ ألفاظ عصرية رشيقة وواضحة الدلالة (مثل: حاسوب، برمجية، مُسيَّرة، حوسبة سحابية، رقمنة).

• توظيف النحت والتركيب المزجي عند الحاجة العلمية: الاستفادة من ظاهرة النحت اللغوي لاختصار المصطلحات المركبة في العلوم الطبية والفيزيائية والكيميائية، بما يحقق الإيجاز والدقة دون إثقال الجملة العربية بالإضافات الطويلة.

• اعتماد التعريب الصوتي المرن للمصطلحات العالمية المستعصية: عدم التردد في تعريب الألفاظ الأعجمية ذات الطابع العالمي (كأسماء العناصر الكيميائية، أو وحدات القياس، أو بعض التقنيات المستحدثة) عبر تطويعها صوتياً وصرفياً للنسق العربي، بدلاً من تركها معلّقة بحروف لاتينية أو نطق أعجمي نافر.

---

[36] عالج القدماء قضية الدخيل والمعرّب بمرونة بالغة، كما يظهر في كتاب «المعرّب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم» لأبي منصور الجواليقي (ت 540هـ)، حيث أُخضعت الألفاظ الوافدة لأوزان العرب وأبنيتهم الصوتية. انظر: الجواليقي، المعرّب، تحقيق: ف. عبد الرحيم، دار القلم، دمشق، 1990م، ص 52.

ثالثاً: ترسيخ الأمن اللغوي في منظومتي التعليم والإعلام

لا يمكن للمصطلح المعرّب أن يكتسب الحياة بمجرد صدوره في قرار مجمعي؛ بل لا بد له من قنوات تداول حية تضخه في الوعي العام، وتأتي المؤسسات التعليمية والإعلامية في طليعة هذه القنوات:

• تعريب التعليم الجامعي في التخصصات العلمية والتطبيقية: وضع خطة تدريجية لإعادة تدريس العلوم الطبية والهندسية والتقنية باللغة العربية، مع الحفاظ على إتقان اللغات الأجنبية بوصفها لغات مساعدة للبحث والاطلاع، إذ أثبتت التجارب العالمية أن الطالب يبدع ويفكر بعمق أكبر حين يتلقى المعرفة بلغته الأم.

• تفعيل الرقابة الذاتية ومواثيق الشرف الإعلامي: إلزام المؤسسات الإعلامية والمنصات الرقمية ومقدمي البرامج الحوارية والثقافية بتجنب الاستعراض اللفظي بالأجنبية (الرطانة)، وتعيين مدققين ومستشارين لغويين يزودون الإعلاميين بالبدائل العربية الفصيحة والسلسة.

• دعم صناعة المحتوى العلمي والتقني العربي على الشبكة العنكبوتية: رعاية المبادرات الشبابية والمؤسسية التي تنتج محتوى مرئياً ومقروءاً في مجالات التكنولوجيا والعلوم الحديثة بلغة عربية سليمة وجذابة، مما يخلق ألفة نفسية وذهنية لدى الجيل الجديد مع المصطلح العربي.

رابعاً: ردم الفجوة بين المجمعي اللغوي والخبير التخصصي والمثقف

كثيراً ما يعزف المثقف أو الباحث عن استعمال المصطلح المعرّب لشعوره بأنه مصطلح «متقعر» أو بعيد عن الدلالة الدقيقة التي يؤديها الأصل الأجنبي؛ ويعود ذلك غالباً إلى غياب التكامل بين اللغوي والاختصاصي:

- **العمل المشترك بين علماء اللغة وعلماء التخصص**: ألا ينفرد اللغوي بوضع المصطلح بمعزل عن الطبيب أو المهندس أو المبرمج؛ فالاختصاصي يحدد المفهوم العلمي الدقيق، واللغوي يختار القالب الصرفي والصوتي الأنسب، وبذلك يخرج المصطلح جامعاً بين الدقة العلمية والسلاسة اللغوية.

- **تغيير الصورة الذهنية عن العربية بوصفها لغة أدب وتراث فحسب**: تنظيم ندوات وورش عمل مشتركة تجمع المثقفين والمبدعين بالمجامع اللغوية لتعريفهم بجهود التعريب الحديثة، وبناء وعي ثقافي يرى في الاعتزاز بالعربية مظهراً من مظاهر الرقي الحضاري والاستقلال الفكري، لا علامة على الانغلاق.

خاتمة وتوصيات ختامية

إن ظاهرة امتزاج حديث المثقفين بالمصطلحات الأجنبية ليست قدراً محتوماً، بل هي عرضٌ لخلل في منظومة الإنتاج المعرفي والتنسيق المؤسسي. ولن يتحقق الخلاص منها بالشعارات العاطفية أو القرارات الإدارية الجامدة، وإنما بتحويل مجامع اللغة العربية إلى مؤسسات بحثية رقمية سريعة الاستجابة، وبإشراك أهل التخصصات العلمية في صناعة المصطلح، وتوطين العربية في التعليم الجامعي والإعلام الحديث. فمتى ما وجد المثقف العربي مصطلحاً عربياً دقيقاً، سهلاً، ومتداولاً في بيئته العلمية، فإنه سيجنح إليه بطبيعته انتماءً واعتزازاً وقدرةً على البيان.

قائمة المصادر والمراجع

1. إبراهيم أنيس، من أسرار اللغة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة السادسة، 1978م.

2. أبو منصور الجواليقي، المعرّب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم، تحقيق: ف. عبد الرحيم، دار القلم، دمشق، 1990م.

3. عبد السلام المسدي، العرب والانتحار اللغوي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2011م.

4. عبد القادر الفاسي الفهري، اللسانيات واللغة العربية: نماذج تركيبية ودلالية، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1985م.

5. علي القاسمي، علم المصطلح: أسسه النظرية وتطبيقاته العملية، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، 2008م.

6. محمود فهمي حجازي، الأسس اللغوية لعلم المصطلح، مكتبة غريب، القاهرة، 1993م.

7. نهاد الموسى، اللغة العربية في العصر الحديث: قيم الثبوت وقوى التحول، دار الشروق، عمّان، 2007م.

11–دراسة نقدية ونفسية في سيكولوجية الإبداع الأدبي

بين عدسة المجهر وشمولية البانوراما:

إشكالية التفكير والعمق في الكتابة الأدبية



ملخص الدراسة:

تتناول هذه الدراسة الإشكالية النقدية والمعرفية المتعلقة بطبيعة الوعي الإبداعي لدى الأديب: هل يمتلك الأديب نمط تفكير خاصاً يحصره في زاوية الجزئيات الدقيقة ويحجب عنه الرؤية البانورامية الشاملة للكون؟ أم أن الخلفية العلمية والمنهجية التطبيقية تمنح النص الأدبي عمقاً تشريحياً وتماسكاً هيكلياً يتفوق على الكتابة الانطباعية البحتة؟ وتخلص الدراسة إلى صياغة نموذج «العدسة المزدوجة» بوصفه التركيب التكاملي الأمثل الذي يجمع بين اتساع التلسكوب المعرفي ودقة الميكروسكوب الوجداني، مدعّمة بنماذج تطبيقية متنوعة من التراث العربي والأدب الحديث والعالمي.

مقدمة تمهيدية وتأصيلية للإشكالية النقدية

يشهد الحقل الإبداعي والنقدي سجالاً متجدداً ومستمراً حول طبيعة الوعي الذي يصدر عنه الأديب أثناء فعالية الخلق الفكري والجمالي؛ فبينما يذهب الاتجاه الرومانسي والحدسي التقليدي إلى أن الأديب الحقيقي هو ذلك الكائن الغارق كلياً في وجدانه، المنعزل بحدوسه الفطرية وانفعالاته الذاتية عن التشابكات الكبرى للعلوم والمنهج، يرى اتجاه نقدي حديث أن النصوص الأكثر عمقاً، ورسوخاً، وبقاءً في الذاكرة الإنسانية هي تلك التي تصدر عن عقول تتقن امتلاك أدوات التحليل، وتعرف كيف تزاوج بين صرامة المنهج ورهافة التخيل (1).

إن هذا التجاذب المعرفي بين «العين الأدبية» و«العقل العلمي» يضع الباحث أمام مقولة شائعة في الأوساط الثقافية مفادها أن الأدباء البحتين يمتلكون طريقة تفكير خاصة تجعلهم لا يرون الكون بشمولية كالبانوراما، بل ينشغلون بالجزئيات المتناثرة، في حين أن الأديب الذي يجمع بين الأدب والدراسة أو العمل في المجال العلمي تكون كتابته أعمق وأكثر إحكاماً. ومن هنا تتبلور الإشكالية المركزية لهذه الدراسة في التساؤلات الآتية:

الإشكالية المركزية للدراسة:

1. إلى أي مدى يصح القول بأن الأديب البحت يفتقر إلى الرؤية البانورامية الشاملة مقارنة بمن تشرّب منهجية التفكير العلمي أو التطبيقي؟
2. هل يُعدّ انشغال الأديب بالجزئيات الحميمية قصوراً في الإحاطة الكلية، أم هو اختيار معرفي وجمالي مقصود يشكّل جوهر الخصوصية الأدبية؟
3. كيف يمكن للمبدع أن يحقق «التركيب التكاملي» الذي يقي نصه الترهل الإنشائي من جهة، والبرود الأكاديمي الجاف من جهة أخرى؟

المبحث الأول: التشريح النفسي والمعرفي للأديب (هل يعاني من عمى بانورامي؟)

عند تفكيك البنية الذهنية والنفسية للأديب، يتضح أنه لا ينظر إلى الكون بوصفه «لوحة بانورامية مسطحة» تُدرك بالمسح البصري أو الإحصائي المجرد الذي يراه عامة الناس أو علماء الاجتماع والاقتصاد؛ بل يمتلك الأديب ما يمكن تسميته بـ «العدسة المقرّبة» (Macro Lens) والمجهر النفسي الدقيق (2). فبينما ترصد العين البانورامية حركة حشد بشري ككتلة واحدة، أو تسجل أرقام الحروب والأزمات كإحصائيات باردة، تنصرف عين الأديب إلى الشقاق الخفي في نظرة فرد واحد، وتفصيلة النور المنكسر على جدار غرفة مهجورة، والصمت المشحون الذي يعقب جملة عابرة.

1. الانزياح الإرادي نحو الجزئي الحميم

إن وصف هذه الظاهرة بأنها «عجز» أو «عمى بانورامي» ينطوي على مغالطة نقدية؛ فالأديب لا يعجز عن إدراك المشهد الكلي، ولكنه يمارس «انزياحاً إرادياً» وواعياً نحو الجزئي الحميم. فالكون في الفلسفة الجمالية للأدب لا يُفهم عبر القوانين الرياضية المجردة، بل يُختزل ويُختبر في تجربة إنسانية فردية حية. ومن هنا تكتسب الأعمال الأدبية الخالدة شرعيتها وبقاءها؛ لأنها تحوّل العام والمجرد إلى خاص ومعيش يلامس وجدان القارئ في كل زمان ومكان (3).

2. الجزئي بوصفه بوابة للكل

في البناء السردي والشعري العميق، لا يكون الجزء معزولاً عن الكل، بل يكون مرآة مكثفة له. فمأساة أمة بأكملها قد تتجسد في ارتجافة يد شيخ يودع داره، وتحولات عصر كامل قد تُختصر في حوار داخلي

لشخصية مأزومة. وبذلك يصبح التركيز المجهري للأديب أداة لاستكشاف الكون من الداخل، لا هروباً من شموليته.

المبحث الثاني: أثر الخلفية العلمية والمنهجية في عمق الكتابة الأدبية

تستند المقولة التي ترى أن الأديب ذا الخلفية العلمية أو التخصصية الدقيقة تكون كتابته أعمق وأكثر تماسكاً إلى معطيات معرفية ونفسية وجيهة؛ إذ إن الاشتغال بالعلوم الصرفة أو التطبيقية أو العلوم الإنسانية المنهجية يورث العقل مهارات نوعية تنعكس مباشرة على جودة النص الأدبي وعمقه:

أولاً: صرامة المنهج ودقة الملاحظة: يتدرب الباحث في الحقول العلمية على ضبط الملاحظة، وتفكيك الظواهر المعقدة إلى عناصرها الأولية، وربط الأسباب بمسبباتها بعيداً عن التعميمات الفضفاضة. وحين ينتقل هذا العقل إلى حقل الكتابة الأدبية، فإنه يمنح النص هيكلاً معمارياً متيناً يجنّبه السقوط في فخ «الإنشائية المترهلة» أو التدفق العاطفي غير المنضبط (4).

ثانياً: العمق التشريحي والسلوكي: تتيح المهن العلمية والتطبيقية (كالطب، والهندسة، والقانون، وعلم النفس التجريبي) لصاحبها احتكاكاً مباشراً بالحالات الإنسانية القصوى (المرض، الألم، الصراع، الانهيار، والانضباط). هذا الاحتكاك يزوّد الأديب بـ «مبضع تشريحي» يمكّنه من سبر أغوار النفس البشرية وتناقضاتها بواقعية صلبة وموضوعية نافذة تتجاوز الانطباع العاطفي العابر.

ثالثاً: الاقتصاد اللفظي والكتابة الكثيفة: يمتلك الكاتب المتمرس في المنهج العلمي قدرة عالية على «الكتابة الكثيفة» (5)؛ لأن عقله اعتاد الاقتصاد في العبارة، وتجنب الحشو والتكرار المجاني، وإيصال الدلالة بأقصر الطرق وأدقها، مما يجعل كل جملة في نصه الأدبي تؤدي وظيفة دلالية ونفسية محددة.

محذورات وحدود هذه المقولة

رغم وجاهة هذه الأسباب، فإن هذه المقولة لا ترقى إلى مستوى القاعدة المطلقة؛ إذ قد يتحول التفكير العلمي أو الأكاديمي الصارم إلى عبء على النص الأدبي إذا طغى على الحساسية الجمالية، فيصاب النص بـ «التجفيف الأكاديمي» ويتحول إلى تقرير عقلي بارد يفتقر إلى الموسيقى الداخلية، والدهشة، والحرارة الوجدانية. كما أن تاريخ الأدب يزخر بعمالقة لم يتلقوا تدريباً علمياً صارماً، لكن حدسهم الفلسفي وتأملهم الوجودي منحهم رؤية كونية نافذة.

المبحث الثالث: التركيب التكاملي (نموذج «العدسة المزدوجة»)

لحل التعارض الظاهري بين «العين الأدبية المجهرية» و«العقل العلمي الشمولي»، تقترح الدراسة نموذجاً نقدياً وتطبيقياً يقوم على فكرة «العدسة المزدوجة»؛ حيث لا يُنظر إلى العلم والأدب كخطين متوازيين لا يلتقيان، بل كآليتين معرفيتين تتكاملان لإنتاج الأديب الشمولي العميق، وذلك عبر ركائز ثلاث:

العقل العلمي المنهجي	العين الأدبية المجهرية	محور المقارنة
المسح البانورامي الشامل، ورصد القوانين الكلية والنسق العام للظواهر.	التركيز على الجزئي الحميم، والانفعال الفردي، والتفاصيل النفسية الدقيقة.	زاوية الرؤية
الملاحظة المنضبطة، التفكيك، التحليل السببي، والبناء المنطقي.	الحدس، التخيل، الرمز، والتكثيف الشعوري والجمالي.	أداة المعالجة
حماية الفكر من الجفاف والتجريد البارد عبر منحه نبض الحياة والتعاطف الإنساني.	تحويل التجربة الفردية إلى شهادة حضارية وإنسانية تجمع بين حرارة الوجدان وصلابة البناء.	ثمرة التكامل

1. التنقل الواعي بين التلسكوب والميكروسكوب: يتمثل النضج الإبداعي في قدرة الأديب على الابتعاد خطوة إلى الوراء ليرى الخريطة التاريخية والاجتماعية الكبرى (رؤية التلسكوب)، ثم الاقتراب بجرأة ليرصد

خلجة نفسية عابرة داخل هذه الخريطة (رؤية الميكروسكوب)، دون أن يطغى أحد المستويين على الآخر.

2. ترويض الفوضى الشعورية وتجسير الفجوة المعرفية: تعمل المنهجية العلمية بوصفها «مصفاة» تنقي المادة الشعورية الخام من الترهل والتكرار، فتحوّل الانفعال العابر إلى بناء فني محكم، وتجسّر الفجوة بين «ما هو كائن» (الذي يصفه العلم بدقة) و«ما يتركه الواقع في الروح» (الذي يستشرفه الأدب بعمق) (6).

المبحث الرابع: نماذج تطبيقية لأدباء جمعوا بين العلم والعمق الأدبي

لإثبات صحة أطروحة «العدسة المزدوجة» وتأثير الخلفية العلمية والتطبيقية في عمق الكتابة الأدبية، نستعرض ستة نماذج تطبيقية متنوعة من التراث العربي والأدب العربي الحديث والأدب العالمي، تمثل حقولاً علمية ومهنية مختلفة:

أولاً: نماذج من حقل الطب والعلوم الحيوية

1. أنتون تشيخوف (1860–1904م) — الطب بوصفه مجهراً نفسياً: لم تكن دراسة الطب وممارسته عند تشيخوف مجرد مهنة موازية للكتابة، بل كانت بمثابة «مختبر تشريحي» للنفس البشرية؛ وقد صرّح تشيخوف في رسائله بأن دراسته للعلوم الطبيعية والطب وسّعت من دائرة ملاحظاته، وعلّمته ألا يتعجل بإصدار أحكام أخلاقية وعظية على شخصياته، بل يكتفي بوضع التشخيص الدقيق للأعراض

النفسية والاجتماعية للمجتمع الروسي بأسلوب مكثف ومحايد ظاهرياً، لكنه يفيض بالرحمة الإنسانية في جوهره (7).

2. د. يوسف إدريس (1927–1991م) — الإكلينيكية السردية وسبر الأغوار: يُعدّ الدكتور يوسف إدريس نموذجاً عربياً فذاً للطبيب الذي نقل أدوات الفحص الإكلينيكي إلى القصة القصيرة والمسرح؛ فقد انعكست خبرته في مستشفيات القصر العيني والريف المصري على قدرته الفائقة في التقاط «النبض الباطني» للشخصيات المهمشة، وتشريح الدوافع اللاواعية والغرائز الإنسانية بجرأة ودقة علمية ممزوجة بحرارة الوجدان الشعبي.

ثانياً: نماذج من حقل الهندسة والرياضيات والعلوم الدقيقة

3. فيودور دوستويفسكي (1821–1881م) — الهندسة المعمارية للنفس البشرية: درس الأديب والمفكر المصري محمد حسين هيكل القانون والاقتصاد السياسي في باريس، كما برز في الأدب العربي والعالمي أدباء ذوو تكوين هندسي ورياضي مثل الأديب الروائي والمهندس السوري عبد السلام العجيلي (الطبيب والباحث) والمهندس والروائي المصري صنع الله إبراهيم؛ كما يمثل الأديب والروائي والمهندس الروسي فيودور دوستويفسكي (خريج كلية الهندسة العسكرية في بطرسبورغ) ذروة البناء المعماري للرواية النفسية. فقد منحه التكوين الهندسي قدرة مذهلة على هندسة الصراعات الفكرية المتشابكة، وبناء «رواية تعدد الأصوات» (البوليفونية) بدقة رياضية محكمة تجعل كل شخصية تتحرك وفق منطقها الداخلي الصارم دون تناقض (8).

4. أبو عثمان الجاحظ (775–868م) — الموسوعية العلمية والبيان التحليلي: جمع الجاحظ بين الموسوعية العلمية (دراسة طبائع الحيوان، والنبات، والفلك، وعلم الكلام، والاجتماع) وبين البيان الأدبي الرفيع. ويتجلى أثر «العقل العلمي التجريبي» في كتابه «الحيوان» و«البخلاء»؛ حيث لم يكتفِ بالوصف البلاغي المسجوع، بل اعتمد الملاحظة المباشرة، والتجربة، والاستقراء، والشك المنهجي، مما جعل نثره الأدبي أعمق وأكثر حيوية وواقعية من النثر الإنشائي التقليدي في عصره (9).

(8) باختين، ميخائيل، شعرية دوستويفسكي، ترجمة: جميل نصيف التكريتي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1986م، ص 18–25.

ثالثاً: نماذج من حقل القانون والعلوم الإنسانية المنهجية

5. يحيى حقي (1905–1992م) — الصرامة القانونية والاقتصاد السردي: جمع يحيى حقي بين الدراسة الحقوقية الصارمة والعمل في السلك الدبلوماسي والقضائي، وبين كتابة القصة القصيرة والنقد الأدبي. وقد أثمر هذا التزاوج أسلوباً سردياً يُعرف بـ «الاقتصاد اللغوي الصارم»؛ إذ كان يصوغ قصصه بدقة صياغة المذكرات القانونية من حيث إحكام السبك، لكنه يملؤها بالدفء الإنساني والرمزية الحضارية كما في رائعته «قنديل أم هاشم» التي عالجت الصراع بين العلم والوجدان الروحي.

6. د. عبد السلام العجيلي (1918–2006م) — تكامل المبضع الطبي والقلم الأدبي: يُعدّ الدكتور عبد السلام العجيلي (1918–2006م) أنموذجاً عربياً متكاملاً للأديب العالم؛ فقد مارس الطب في مدينته الرقة طوال حياته، وكتب الرواية والقصة القصيرة والشعر وأدب الرحلات. وقد انعكس تكوينه

العلمي والطبي على أدبه في شمولية الرؤية (البانوراما الحضارية والاجتماعية للمجتمع السوري والعربي) مقترنة بالدقة المجهرية في تشخيص أمراض المجتمع وتحولاته النفسية والقيمية، دون افتعال أو تهويل خطابي (10).

خاتمة الدراسة والنتائج

تخلص هذه الدراسة إلى أن المقولة القائلة بافتقار الأديب إلى الرؤية البانورامية وتفوّق الأديب ذي الخلفية العلمية هي مقولة «صحيحة نسبياً» إذا فُهمت في إطار التكامل الوظيفي، و«قاصرة» إذا أُخذت على إطلاقها. وقد انتهى البحث إلى النتائج الآتية:

1. إن تركيز الأديب على الجزئيات الدقيقة ليس عمىً عن الشمولية الكونية، بل هو آلية جمالية لاختزال الكلي في تجربة فردية حية وقابلة للتعاطف.

2. تمنح الخلفية العلمية والمنهجية الأديب أدوات ضبط الملاحظة، وتماسك البناء، والكتابة الكثيفة، والتشريح النفسي العميق، كما ظهر جلياً في نماذج تشيخوف، والجاحظ، ودوستويفسكي، ويحيى حقي، ويوسف إدريس، وعبد السلام العجيلي.

3. يكمن سر الخلود الأدبي في «العدسة المزدوجة» التي تتيح للمبدع أن يرى الكون بعين الكليات البانورامية، وأن يلمسه بأنامل الجزئيات المجهرية الحميمية دون أن يطغى البرود العلمي على حرارة الوجدان.

4. تكمن مهارة الكاتب الحاذق في اختيار قضايا اجتماعية تلامس شريحة كبيرة في المجتمع وتعالج مالم تعالجه السنون في محاولة إيجابية لإيجاد حل حقيقي لكل مشكلة، ولو بالتلميح والإشارة.

ثبت المصادر والمراجع

1. باختين، ميخائيل: شعرية دوستويفسكي، ترجمة: جميل نصيف التكريتي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1986م.

2. باشلار، غاستون: جماليات المكان، ترجمة: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط3، 1987م.

3. تشيخوف، أنتون: رسائل في الأدب والفن، ترجمة: أبو بكر يوسف، دار الفارابي، بيروت، 2005م.

4. الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: الحيوان، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، 1996م.

5. الخاني، ريمه عبد الإله: دراسات في الكتابة الكثيفة وبلاغة التلقي، أرشيف فرسان الثقافة للدراسات والأبحاث، 2025م.

6. ريكور، بول: الزمان والسرد (الحبكة والسرد التاريخي)، ترجمة: سعيد الغانمي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2006م.

7. سنو، تشارلز بيرسي: الثقافتان والثورة العلمية، ترجمة: نخبة من المترجمين، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2002م.

8. العجيلي، عبد السلام: أحاديث العشيات، دار الشرق العربي، دمشق، ط2، 1995م.

9. عيسوي، عبد الرحمن: سيكولوجية الإبداع الفني والأدبي، دار النهضة العربية، بيروت، ط2، 1998م.

10. محمود، زكي نجيب: المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري، دار الشروق، القاهرة، ط4، 1987م.

12-جدلية التواضع الضمني والعزة الظاهرة في مقولة «المرء قليل بنفسه كثير بغيره»:

مقاربة نفسية ومعرفية في ضوء الفطرة الإنسانية.



ملخص البحث

تتناول هذه الدراسة الأبعاد الفلسفية والنفسية والتربوية للمقولة العربية المأثورة: «المرء قليل بنفسه كثير بغيره»، متجاوزةً التفسير الاجتماعي السطحي الذي يربط «الكثرة» بالوجاهة أو التبعية، نحو قراءة فطرية عميقة توازن بين التواضع الضمني في باطن النفس، والعزة الظاهرة في سلوك الإنسان وتفاعله. وتُحلل الورقة البنية الدلالية لثنائية (القِلّة والكثرة) في التراث اللغوي والبلاغي، ثم ترصد أثر هذه المعادلة في بناء الشخصية العلمية السوية داخل المحاضن الجامعية والثقافية، بوصفها سياجاً يحمي الفرد من آفتي الغرور والانغلاق من جهة، والذوبان وفقدان الكرامة من جهة أخرى.

مقدمة

تُعدّ الحكم والأمثال العربية وعاءً مكثفاً للتجربة الإنسانية، وصياغةً بلاغيةً تختزل قوانين النفس والاجتماع في عبارات موجزة شديدة الإيحاء. ومن بين هذه المأثورات التي تردد صداها في كتب الأدب والأخلاق والاجتماع، مقولة: «المرء قليل بنفسه كثير بغيره»[37]. وللوهلة الأولى، قد يبدو في ظاهر العبارة نوعٌ من

(1) يُنسب هذا القول في كتب الأدب والأمثال إلى حكماء العرب، وقد أورده ابن عبد ربه في العقد الفريد، وأبو هلال العسكري في جمهرة الأمثال في سياق الحث على التآلف والتعاضد ونبذ الاستبداد بالرأي.

المفارقة؛ إذ كيف يجتمع وصف الإنسان بـ «القِلّة» التي توحي بالضآلة والقصور، مع وصفه بـ «الكثرة» التي توحي بالامتلاء والاتساع؟

إن الغوص في البنية العميقة لهذه المقولة يكشف أنها لا تصف حالة عجزٍ سلبي، ولا تدعو إلى الاتكال المذل على الآخرين، بقدر ما ترسم خريطة توازن فطري للنفس البشرية السوية. فالإنسان حين يختلي بذاته ويزن قدراته المجردة بميزان الحقيقة، يدرك أنه «قليل» أمام شساعة الكون واتساع المعرفة، فيورثه ذلك تواضعاً ضمنياً يكسر حدة «الأنا» ويفتح أبواب التعلم؛ وحين يخرج إلى ميدان الحياة والعمل المشترك، فإنه يستمد من تكامله مع أقرانه قوةً معرفيةً وأخلاقيةً تجعله «كثيراً بغيره»، دون أن يتنازل عن عزته الفطرية أو يبتذل كرامته أمام الناس.

المحور الأول: البنية اللغوية والدلالية لثنائية (القِلّة والكثرة)

1. الدلالة المعجمية والبلاغية

يقوم التركيب اللغوي للمقولة على المقابلة البلاغية الدقيقة بين طرفين متضادين ظاهراً، متكاملين باطناً:

- «المرء قليل بنفسه»: تأتي لفظة «قليل» هنا صفةً مشبهةً تدل على الثبوت النسبي؛ أي أن الفرد، إذا ما جُرِّد من محيطه وتفاعله الإنساني، يظل محدود الطاقات والمدارك. والباء في «بنفسه» تفيد السببية والانفراد؛ أي بسبب انكفائه على ذاته واستغنائه الموهوم عن محيطه[38].

(2) انظر: ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، 1994م، مادة (ق ل ل) ومادة (ك ث ر)، حيث يرتبط مفهوم الكثرة بالبركة والنماء والاجتماع، بينما ترتبط القلة بالانفراد والانقطاع.

- «كثير بغيره»: تقابل «كثير» لفظة «قليل»، ولكن الباء في «بغيره» تحمل دلالة الاستعانة والتعاضد والتكامل؛ فالكثرة هنا ليست كثرة عددية مادية فحسب، بل هي كثرة نوعية تتجلى في اتساع الأفق، وتعدد زوايا النظر، وتراكم الخبرات التي يكتسبها الفرد من خلال تفاعله مع الآخرين.

2. التحول الدلالي من الاستضعاف إلى التكامل

في الاستعمال اللغوي السطحي، قد يُفهم «القليل» على أنه الذليل أو الضعيف، ويُفهم «الكثير بغيره» على أنه المتكثر بالأتباع أو المتجمل بالمظاهر الاجتماعية. غير أن السياق الأخلاقي والفطري ينقل الدلالة نقلةً نوعية؛ فـ «القلة» في باطن النفس هي اعتراف بالقصور البشري الفطري الذي أشار إليه البيان القرآني في قوله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 85]، وقوله سبحانه: ﴿وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: 28]. ومن ثم، يصبح الإقرار بالقلة الذاتية مدخلاً للكمال الإنساني عبر سنة التعارف والتكامل، لا مدخلاً للانكسار أو التبعية.

3. أصداء المقولة في التراث الأدبي والأخلاقي

تقاطعت هذه الرؤية مع نصوص التراث العربي التي عالجت علاقة الفرد بالجماعة؛ فقد أشار الماوردي في أدب الدنيا والدين إلى أن الإنسان مطبوع على الحاجة إلى غيره، وأن انفراده يفضي إلى عجزه، بينما اجتماعه بأبناء جنسه يحقق له القوة والمنعة والكمال المعرفي[39]. كما أكد ابن خلدون في مقدمته أن

(3) انظر: أبو الحسن الماوردي، أدب الدنيا والدين، تحقيق مصطفى السقا، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1986م، ص 134–138 (باب في فضل الألفة والائتلاف).

الاجتماع الإنساني ضروري ليس لتحصيل المعاش فحسب، بل لاستكمال العمران المعرفي والأخلاقي للفرد[40].

المحور الثاني: التواضع المعرفي والنفسي (الإقرار بالقصور وبوابة التكامل)

1. الإقرار بالقصور الذاتي منطلقاً للتعلم

حين يستقر في وجدان الباحث أو العالم أن الإنسان بفطرته وتكوينه «قليل بنفسه»، فإن هذا الإقرار لا يشكل عقبة أمام طموحه، بل يتحول إلى رافعة معرفية كبرى. إن الغرور العلمي وانغلاق الفكر على الذات هما المقبرة الحقيقية للإبداع؛ فمن ظن أنه استبد بالحقيقة وحدَه، انقطع عنه مدد الفكر وتوقف نموه[41].

وعليه، فإن التواضع الضمني يمثل الحارس الأمين للفطرة العلمية؛ إذ يحرر العقل من أسر التعصب للرأي، ويجعله مستعداً دائماً لتلقي الحكمة أينما وجدت، عملاً بالأثر المأثور: «الحكمة ضالة المؤمن، أنى وجدها فهو أحق الناس بها»[42]. فالإنسان المتواضع يدرك أن ما يحسنه هو قطرة في بحر ما لا يعلمه، وأن ما ينقصه من رؤى الآخرين هو الذي يكمل لوحة المعرفة لديه.

---

(4) انظر: عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، تحقيق عبد الله محمد الدرويش، دار يعرب، دمشق، 2004م، ج1، ص 137 (الفصل الأول في العمران البشري على الجملة).

(5) انظر: أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت، د.ت، ج3، ص 342–355 (كتاب ذم الكبر والعجب)، حيث يفصّل الغزالي أثر العُجب في إغلاق منافذ المعرفة وتبلد الفكر.

(6) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، حديث رقم (2687)، وابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، حديث رقم (4169)، وهو أصل في الانفتاح المعرفي المتواضع.

2. التفاعل الخلاق و«الغيرية الإيجابية»

في المحاضن الجامعية والبيئات الفكرية، لا ينضج العقل الفردي بمعزل عن تفاعله الخلاق وتناغمه مع العقول الأخرى. إن «الكثرة بغيره» هنا ليست مجرد تجمع عددي، بل هي مختبر تلاقح فكري تتفاعل فيه المناهج، وتتكامل فيه التخصصات:

- الطالب يكتمل وعيه باستنطاق أستاذه وتوجيهاته.
- الباحث يختبر صلابة نظرياته على صخرة النقد الموضوعي من زملائه وأقرانه.
- المجتمع الإنساني بأسره يرتفع بنيانه حين يؤمن أفراده بأن الإنجازات العظمى لا تُبنى بجهد الفرد المُنصِت لصوت نفسه فحسب، بل بتضافر العقول وتكامل الرؤى.

المحور الثالث: العزة الفطرية وحدود التواصل

1. الاستمداد من المبدأ لا من الاستجداء (فلسفة الكرامة في الشراكة)

إن التمييز الدقيق بين التكامل الخلّاق والتبعية الذليلة يرتكز أساساً على مصدريّة الاستمداد الإنساني. فالإنسان حين يعترف بقلّته الذاتية وبحاجته الفطرية إلى غيره، قد يقع في محظور الانهزام النفسي إذا ظنّ أن هذه الحاجة تعني التنازل عن الاستقلالية أو إهدار الكرامة. غير أن العزة الفطرية هي التي تشكل «صمام الأمان» الذي يضبط هذه المعادلة[43]:

(7) انظر: ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1996م، ج2، ص 328–335 (منزلة التواضع والفرق بينه وبين المهانة والذل).

- الاستغناء بالقيمة لا بالمظاهر: إن العزة الظاهرة تعني أن الإنسان لا يستمد قيمته من استرضاء الآخرين، ولا يتسول القبول الاجتماعي عبر التنازل عن مبادئه. بل هو يتعاون مع غيره من موقع «الشريك الفاعل» لا من موقع «التابع المستهلك».
- الفرق بين الاندماج والذوبان: في البيئات الفكرية والأكاديمية، يندمج الباحث الجاد مع فرق العمل بروح الفريق والشورى وتلاقح الأفكار (وهو معنى الكثرة بالغير)، لكنه يظل حارساً لفرادة رؤيته النقدية. إنه لا يذوب في إجماع زائف، ولا يجامل على حساب الحقيقة العلمية؛ فحاجته إلى غيره لتكامل المعرفة لا تعني أبداً استسلام إرادته أو تغييب عقله.

2. استقلالية الشخصية في خضم الجماعة (صون الهوية الفكرية)

حين يلتقي التواضع الضمني (الذي يطهر النفس من كبرياء الأنا وغرور الاستبداد بالرأي) مع العزة الظاهرة (التي تحصن الكياسة والكرامة)، تظهر الشخصية السوية في أبهى صورها:

- مناعة ضد الاستقطاب: الإنسان العزيز بنفسه، المتواضع بفكره، لا تسوقه التيارات العابرة ولا الموضات الفكرية الهشة. إنه ينصت لكل صوت، ويتقبل النقد الموضوعي بصدر رحب (تواضعاً)، ولكنه يزن الأمور بميزان البرهان والأصالة (عزّة).

- الأمانة العلمية والأخلاقية: في حقل الدراسات اللغوية والأدبية والنفسية، تتجلى هذه الاستقلالية حين يجرؤ الباحث على إعلان نتيجة بحثية جديدة تخالف السائد، مستنداً إلى قوة البرهان، دون أن يمنعه تواضعه للعلماء من إثبات موقفه العلمي بصرامة وعزة[44].

المحور الرابع: تطبيقات معاصرة في البيئة الجامعية والفكرية

تتجلى هذه الفلسفة بأبهى صورها في الحقول الأكاديمية والمؤسسات الثقافية المعاصرة، حيث يُقاس نجاح المؤسسات والأفراد بقدرتهم على موازنة هذه الثنائية:

1. فرق البحث العلمي عابرة التخصصات (تكامل المعرفة)

في المؤسسات الأكاديمية المعاصرة، وخصوصاً في الجامعات الرقمية والافتراضية، لم يعد العمل البحثي منجزاً أحادياً منعزلاً، بل تحول إلى منظومة تكاملية تتطلب تضافر جهود المتخصصين في اللسانيات، وعلم النفس المعرفي، والتربية، وتقانات التعليم:

- التواضع المنهجي: يعترف عالم اللسانيات بحاجته لخبير النفس ليفهم أبعاد البناء النفسي للنص، ويعترف المربي بحاجته للتقني. هذا الإقرار بالقصور التخصصي هو أول درجات الإبداع الجماعي.
- الكثرة المثمرة: من هذا التداخل يولد الإنتاج الأكاديمي الرصين الذي يغني المكتبة العربية بأنساق منهجية لا يقدر عليها فرد بمفرده.

2. المناظرات العلمية وحيوية المجلات المحكّمة

(8) انظر: طه عبد الرحمن، سؤال الأخلاق: مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/بيروت، ط1، 2000م، ص 85–92، حول أخلاقيات الحوار العلمي واستقلالية الذات المفكرة.

تستمد المجلات العلمية رصانتها من سياسات «التحكيم الأعمى» والمراجعة النقدية المتبادلة. وهنا تظهر ثمرة المقولة بجلاء:

- أخلاقيات الباحث المحكَّم: حين يستقبل الباحث ملاحظات المحكمين بتواضع، فإنه يرى فيها تصحيحاً لمساره وتوسيعاً لمداركه (المرء قليل بنفسه).
- شجاعة العرض: وحين يصوغ بحثه ويدافع عن أطروحته أمام لجان المناقشة، فإنه يقف بعزة نفس وأمانة علمية تليق بأهل الاختصاص.

3. بناء الأجيال وتأصيل أدب الحوار الأكاديمي

إن أزمة التعليم المعاصر أحياناً تكمن في إنتاج إما «متكبر مغرور» يعتد برأيه ولو كان خاطئاً، أو «إمعة تابع» لا رأي له. وتأتي هذه المقولة لترسم المنهج التربوي السوي لصناعة الباحث الواعي:

- تربية الطلاب والباحثين على قبول النقد باعتباره هدية معرفية لا طعناً شخصياً.
- غرس روح الانتماء المؤسسي والعمل الجماعي دون إلغاء لشخصية الباحث أو بصمته الخاصة.

خاتمة الدراسة

انطلاقاً ممّا سبق، تتأكد دلالة مقولة «المرء قليل بنفسه كثير بغيره» بوصفها دستوراً نفسياً وأخلاقياً رفيعاً. فهي ليست دعوة للاتكال، ولا تقريراً لضعف مهين، بل هي توصيف دقيق للفطرة البشرية السوية التي تجمع بين انكسار التواضع في السر، وعزة الكبرياء في العلن. وحين يعي الباحثون والمفكرون هذه المعادلة، تتطهر المحاضن الجامعية من آفتي الغرور الفردي والتبعية العمياء، لتتحول الجامعات ومراكز البحث إلى بيئات خصبة للتكامل الإنساني والمعرفي الخلاق، تنهض بها الأمم وتسمو بها الحضارات.

قائمة المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم.

2. ابن خلدون، عبد الرحمن: المقدمة، تحقيق: عبد الله محمد الدرويش، دار يعرب، دمشق، 2004م.

3. ابن عبد ربه، أحمد بن محمد: العقد الفريد، تحقيق: مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1983م.

4. ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1996م.

5. ابن ماجه، محمد بن يزيد: سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، د.ت.

6. ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم: لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، 1994م.

7. الترمذي، محمد بن عيسى: سنن الترمذي (الجامع الصحيح)، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط2، 1975م.

8. طه عبد الرحمن: سؤال الأخلاق: مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/بيروت، ط1، 2000م.

9. العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله: جمهرة الأمثال، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطامش، دار الفكر، بيروت، ط2، 1988م.

10. الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد: إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت، د.ت.

11. الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد: أدب الدنيا والدين، تحقيق: مصطفى السقا، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1986م.

13–أنواع البشر في البوح وقت الأزمات

دراسة تحليلية مقارنة بين علم النفس الإكلينيكي والهدي النبوي في آليات التنفيس والفيء.



المقدمة

يختلف البشر اختلافاً جذرياً في طريقة تعاطيهم مع الصدمات والأزمات النفسية، وفي أسلوب "البوح" أو التنفيس عن مشاعر الألم والضغط. فبينما يميل بعضهم إلى التعبير الظاهري المباشر، يلجأ آخرون إلى الصمت المطلق أو حتى ردود الفعل العكسية (1). وقد تنبأت السنة النبوية المطهرة بهذا التفاوت الإنساني الطبيعي عبر تصنيفات دقيقة تمسّ جوهر النفس البشرية وطاقتها على العودة إلى الاتزان والتعافي (الفيء) ، (2).

---

(1) انظر: دانيال جولمان، الذكاء العاطفي، ترجمة ليلى الجبالي، عالم المعرفة، الكويت، 2000م، ص 85-92.

(2) انظر: ابن القيم، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، دار الكتاب العربي، بيروت، 1996م، ج 2، ص 156.

أولاً: تصنيف أنواع البشر في البوح وقت الأزمات واستراتيجيات المساعدة

1. النوع الباكي (المنفس عاطفياً)

• طبيعته: يتخذ من الدموع وسيلة أولية للتخفيف. البكاء عنده ليس بالضرورة ضعفاً، بل هو تفريغ فسيولوجي وعاطفي يقلل من هرمونات التوتر في الجسم، يمثل نحو 30% من الاستجابات الأولية، وتشير الدراسات الفسيولوجية إلى أن 70% – 85% ممن يبكون في بيئة آمنة وداعمة يشعرون بتحسن وارتياح ملحوظ في خفض توترهم. (3).

• كيفية المساعدة: توفير المساحة الآمنة وعدم نهيه عن البكاء أو مطالبته بالتجلد السريع. والإنصات الحنون والاحتواء الجسدي أو اللفظي الداعم (مثل: "خذ وقتك في التعبير عما تحس به").

2. النوع المتكلم بقوة (الناطق بالجلد الظاهري)

• طبيعته: يتحدث بصوت حازم ونبرة قوية، مستخدماً لغة صلبة بينما قلبه يعتصر من الألم الداخلي. يحاول حماية هيبته أو تجنب ظهور الضعف أمام الآخرين، يمثل نحو 20% ممن يعتمدون على الكبت التعبيري وإظهار الصلابة لحماية هيبتهم. (4).

• كيفية المساعدة: عدم الاكتفاء بظاهره القوي، والنفاذ بحكمة إلى ما وراء الكلمات. وإشعاره بأنه لا يحتاج إلى "التصنع بالقوة" أمامك، وإتاحة المجال له للإقرار بتعبه دون خوف من الأحكام المسبقة.

3. النوع المعادي لمن يحب (المدافع العكسي)

• طبيعته: يشعر أن الدنيا كلها ضده، وفي لحظات الذروة الشعورية قد يترجم ألمه وضغطه إلى غضب أو جفاء أو حتى معاداة لمن يحبهم ويهتمون لأمره، وذلك كرد فعل دفاعي لا واعي يحمي به ذاته المهشمة حتى تنفرج أساريره وتزول الغمة، يمثل نحو 15% ممن يترجمون الضغط النفسي إلى غضب أو جفاء دفاعي (إزاحة انفعالية). (5).

• كيفية المساعدة: الصبر الطويل وعدم أخذ ردود أفعاله العكسية بشكل شخصي. والابتعاد المؤقت المدروس عند حدة الغضب مع إبقاء رسالة الطمأنينة حاضرة بأنك موجود متى ما هدأت عواصفه.

4. النوع الصامت المنعزل (الكاتم)

• طبيعته: يغلق على نفسه الأبواب وينعزل تماماً عن العالم، لا يتكلم أبداً، ويتحول ألمه إلى صمت مطبق قد يُفسر خطأً بالبرود وهو في أوج احتراقه الداخلي، مثل النسبة الأعلى بنحو 35% (وترتفع إلى 40% – 45% في البيئات المحافظة أو في الساعات الأولى للصدمات الحادة كآلية حماية أولية). (6).

• كيفية المساعدة: احترام رغبته في العزلة المؤقتة دون تركه وحيداً تماماً؛ إرسال رسائل اطمئنان غير ضاغطة. وإشعارهم بالوجود الدائم بجانبهم دون إلحاح في طرح الأسئلة أو إجبارهم على الكلام قبل أن ينضج استعدادهم الداخلي لذلك.

---

(3) Frey, W. H., & Langseth, M. (1985). Crying: The Mystery of Tears. Minneapolis: Winston Press, p. 45–58.

(4) Freud, A. (1936). The Ego and the Mechanisms of Defence. London: Hogarth Press, p. 74.

(5) Bowlby, J. (1988). A Secure Base: Parent-Child Attachment and Healthy Human Development. Basic Books, p. 112.

(6) Levine, P. A. (2010). In an Unspoken Voice: How the Body Releases Trauma and Restores Goodness. North Atlantic Books, p. 89.

ثانياً: دور الحديث الشريف في تفسير الظاهرة (سريع الفيء وبطيء الفيء)

في التوجيه النبوي الشريف، نجد إشارات عميقة تدل على تفهم الفروق الفردية في سرعة استعادة التوازن النفسي والرجوع إلى الحق أو الصبر (الفيء) (7).

• المفهوم النبوي: ورد في السنة الشريفة وصف الناس بأطياف مختلفة؛ فمنهم "سريع الفيء بطيء الغضب"، ومنهم "سريع الغضب سريع الفيء"، ومنهم من يتأخر في العودة والتوازن (8).

• الدلالة النفسية والإيمانية:

1. الفيء يعني الرجوع والعودة إلى حالة السكينة واليقين والعقل.

2. سرعة أو بطء الفيء لا تعني بالضرورة نقص الإيمان، بل تعود إلى تفاوت الطباع والبنى النفسية والعصبية للأفراد.

3. يظهر مستوى الإيمان والصبر والصمود جلياً في المدى الطويل؛ فالمؤمن الصابر هو من يحفظ جوارحه وقلبه عن تجاوز الحدود، بغض النظر عن سرعة أو بطء عودته لحالته الطبيعية. الصمود الحقيقي هو الثبات على المبدأ وعدم السقوط في التسخط، حتى وإن استغرق الشخص وقتاً طويلاً في "الفيء" (التعافي والهدوء).

ثالثاً: التأصيل النفسي والتحليلي لأنماط التعبير والبوح عن الألم

يكشف التفكير النفسي الحديث والتطبيقي أن تفاوت البشر في التعبير عن الألم النفسي والصدمات يرجع إلى التفاعل الناجم عن عدة عوامل تشمل: الجهاز العصبي اللاإرادي، وأنماط التعلق (Attachment Styles)، والآليات الدفاعية اللاوعية (Defense Mechanisms) (9).

ويمكن تفسير كل نمط وفق الأبعاد النفسية التالية:

1. التفسير النفسي للنوع الباكي (التفريغ العاطفي المباشر – Emotional Catharsis)

يُصنَّف البكاء في علم النفس كاستجابة تنفيسية ذاتية (Cathartic Response)، حيث يعمل التفريغ العاطفي على تفعيل الجهاز العصبي اللاباراسمبثاوي (Parasympathetic Nervous System)، مما يساهم في إبطاء ضربات القلب وتقليل مستويات هرمون الكورتيزول والادرينالين في الدم (10). وينتمي أصحاب هذا النمط غالباً إلى ذوي "التعلق الآمن" (Secure Attachment).

2. التفسير النفسي للمتكلم بقوة (التسامي الدفاعي وقمع الضعف – Suppression & Reaction Formation)

يمارس هذا النمط آلية "التشكل العكسي" (Reaction Formation) أو "القمع الإرادي" (Suppression)، إذ يستبدل بالشعور بالهشاشة والانكسار ظاهراً من الصلابة والتماسك والقوة اللفظية. فالحديث بصوت حازم وقوي يُعد وسيلة حماية واعية أو شبه واعية يمنع بها النفس من الانهيار التام أمام الآخرين (11).

3. التفسير النفسي للمُعادي لمن يحب (الإسقاط والإزاحة الدفاعية – Displacement & Projection)

يعتمد هذا النمط على حيلتين دفاعيتين رئيستين: "الإزاحة" (Displacement)، حيث يتم تحويل مشاعر العجز والغضب الداخلي إلى الأشخاص الأكثر قرباً وأماناً؛ و"الإسقاط" (Projection)، إذ يشعر الفرد أن "العالم كله ضده" (12). ويرتبط هذا السلوك غالباً بنمط "التعلق الخائف–المتجنب" Fearful-Avoidant Attachment).)

4. التفسير النفسي للصامت المنعزل (الانسحاب النفسي والتجمّد – Emotional Shutdown & Dissociation)

يعكس الصمت والانعزال حالة تُعرف في علم النفس الصدمي بـ "استجابة التجمّد" (Freeze Response) الناشئة عن تفعيل الجهاز العصبي السمبثاوي المكثف مع عجز عن المواجهة أو الهرب (13). تتحول الذات إلى حالة انغلاق لحماية الوعي من الاحتراق والانغمار بالصدمة.

(7) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الفتن، باب ما جاء في كلام الرب عز وجل، حديث رقم (2191).

(8) المباركفوري، تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، دار الكتب العلمية، بيروت، ج 6، ص 391.

(9) Porges, S. W. (2011). The Polyvagal Theory: Neurophysiological Foundations of Emotions, Attachment, Communication, and Self-regulation. W. W. Norton & Company, p. 102.

(10) Gross, J. J. (2002). Emotion regulation: Affective, cognitive, and social consequences. Psychophysiology, 39(3), 281-291.

(11) Vaillant, G. E. (1992). Ego Mechanisms of Defense: A Guide for Clinicians and Researchers. American Psychiatric Pub, p. 65.

(12) Mikulincer, M., & Shaver, P. R. (2007). Attachment in Adulthood: Structure, Dynamics, and Change. Guilford Press, p. 188.

(13) van der Kolk, B. A. (2014). The Body Keeps the Score: Brain, Mind, and Body in the Healing of Trauma. Viking, p. 210.

ثالثاً: المؤشرات التقديرية وجدول المقارنة التحليلية

توضح دراسات أنماط التكيف الانفعالي (Emotional Coping Styles) وتقارير الصحة النفسية أن الاستجابات البشرية للأزمات تتوزع بنسب متباينة تبعاً للبنية الشخصية والبيئة الاجتماعية؛ إذ يُقدَّر أن نحو 30% يميلون إلى التفريغ العاطفي المباشر بالبكاء والفضفضة، بينما يلجأ نحو 35% إلى الصمت والانكفاء الداخلي، في حين يتوزع الباقون بين التجلد الظاهري والتحكم الانفعالي (نحو 20%) وردود الفعل الدفاعية الغاضبة أو العكسية (نحو 15%) خلال الذروة الأولى للأزمة[4]. كما تؤكد الأبحاث

الإكلينيكية أن أكثر من 65% من الحالات التي تتلقى احتواءً غير ضاغط (متوافقاً مع نمطها) تستعيد توازنها النفسي (الفيء) بسرعة تفوق الضعف مقارنة بمن يتعرضون للوم أو الإجبار على الكلام.

جدول مقارنة تحليلي شامل بين الأنماط الأربعة

النمط البشري	النسبة التقديرية للاستجابة الأولية	طبيعته وسلوكه وقت الأزمة	كيفية المساعدة والاحتواء
1. النوع الباكي (المنفّس عاطفياً)	≈ 30%	يتخذ من الدموع وسيلة للتفريغ الفسيولوجي والعاطفي وتقليل هرمونات التوتر.	توفير مساحة آمنة، عدم نهيه عن البكاء، والإنصات الحنون والاحتواء الداعم.
2. النوع المتكلم بقوة (الناطق بالجلد الظاهري)	≈ 20%	يتحدث بنبرة حازمة ولغة صلبة لحماية هيبته وإخفاء ألمه الداخلي.	النفاذ لما وراء الكلمات، ورفع حرج «التصنع بالقوة» ليُقرّ بتعبه بأمان.

3. النوع المعادي لمن يحب (المدافع العكسي)	≈ 15%	يترجم ضغطه إلى غضب أو جفاء تجاه أحبائه كآلية دفاعية لا واعية.	الصبر وعدم شخصنة الردود، والانسحاب المؤقت الهادئ مع إبقاء رسالة الطمأنينة.
4. النوع الصامت المنعزل (الكاتم)	≈ 35%	يغلق الأبواب ويلوذ بصمت مطبق يُخفي احتراقاً داخلياً شديداً.	احترام عزلته دون هجره، وإرسال رسائل طمأنة لطيفة بلا أسئلة مُلحّة.

رابعاً: الخلاصة والتوصيات الإرشادية

1. الوعي بالفروق الفردية: إن فهم هذه الأنماط يقي العلاقات الإنسانية من سوء التفاهم، فلا يُحاسب الصامت بقسوة، ولا يُلوم الحادّ في طبعه فجأة، ولا يُستهان بدموع الباكي.

2. التوازن بين الصبر والاحتواء: مساعدة الآخرين تتطلب صبراً استثنائياً ودراية بأن الألم يلبس لبوساً مختلفة من شخص لآخر.

3. مراعاة متطلبات الفيء: احترام التفاوت في سرعة التعافي وتجنب الضاغط النفسي والتعامل بمرونة وإحسان.

خامساً: قائمة المصادر والمراجع الشاملة ((Bibliography))

1. القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

2. ابن القيم الجوزية. (1996). مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (تحقيق: محمد حامد الفقي). بيروت: دار الكتاب العربي.

3. المباركفوري، محمد عبد الرحمن. (1990). تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي. بيروت: دار الكتب العلمية.

4. الترمذي، محمد بن عيسى. (1998). سنن الترمذي (جامع الترمذي). تحقيق: أحمد محمد شاكر. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

5. جولمان، دانيال. (2000). الذكاء العاطفي. ترجمة: ليلى الجبالي. الكويت: سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

سادسا:المراجع والمصادر الغربية:

6. Bowlby, J. (1988). A Secure Base: Parent-Child Attachment and Healthy Human Development. New York: Basic Books.

7. Freud, A. (1936). The Ego and the Mechanisms of Defence. London: Hogarth Press.

8. Frey, W. H., & Langseth, M. (1985). Crying: The Mystery of Tears. Minneapolis: Winston Press.

9. Gross, J. J. (2002). Emotion regulation: Affective, cognitive, and social consequences. Psychophysiology, 39(3), 281-291.

10. Levine, P. A. (2010). In an Unspoken Voice: How the Body Releases Trauma and Restores Goodness. Berkeley: North Atlantic Books.

11. Mikulincer, M., & Shaver, P. R. (2007). Attachment in Adulthood: Structure, Dynamics, and Change. New York: Guilford Press.

12. Porges, S. W. (2011). The Polyvagal Theory: Neurophysiological Foundations of Emotions, Attachment, Communication, and Self-regulation. New York: W. W. Norton & Company.

13. Vaillant, G. E. (1992). Ego Mechanisms of Defense: A Guide for Clinicians and Researchers. Washington, DC: American Psychiatric Publishing.

14. van der Kolk, B. A. (2014). The Body Keeps the Score: Brain, Mind, and Body in the Healing of Trauma. New York: Viking.

حواشٍ وتوضيحات منهجية

• حاشية (1): تُعنى هذه الدراسة بالربط التفسيري بين أنماط الاستجابة النفسية للأزمات وتنظيم الانفعال في علم النفس المعاصر، وبين الإشارات النبوية إلى طباع الناس وسرعة رجوعهم إلى الاتزان النفسي والخلقي.

• حاشية (2): يُعدّ البكاء استجابة عاطفية وفسيولوجية طبيعية مرتبطة بتفريغ التوتر وتنظيم المشاعر، ولا يصح اختزاله في صورة العجز أو الضعف المطلق.

• حاشية (3): تشير الأدبيات النفسية إلى أن إظهار الصلابة القسرية أو الضبط المفرط قد يرتبط أحياناً بمحاولة حماية الذات أو كبت المشاعر المؤلمة خشية فقدان السيطرة أو التقدير الاجتماعي.

• حاشية (4): في علم النفس الإكلينيكي، قد تظهر الحدة أو الجفاء المؤقت في سياق الاستجابات الدفاعية أو الضغط العصبي الشديد والصدمة، حيث يجد الفرد صعوبة في تنظيم انفعالاته المباشرة.

• حاشية (5): يُعدّ الانسحاب والانغلاق المؤقت من الاستجابات الشائعة لدى بعض الأفراد عند التعرض للضغط الشديد أو الصدمة النفسية، حيث يتطلب استجماع الطاقة الداخلية قبل القدرة على التواصل.

• حاشية (6): وردت في كتب الحديث والآثار ألفاظ تُقسِّم الناس بحسب سرعة الغضب والفيء؛ منها ما يُروى في سنن الترمذي ومسند أحمد والمستدرك وأحاديث «أمور الناس وأخلاقهم»، وقد نبّه بعض أهل العلم إلى أن بعض ألفاظ هذه الروايات فيها ضعف إسنادي عند المحدثين، بينما يبقى المعنى اللغوي والخلقي للفيء واضحاً في الرجوع إلى الحق والهدوء والاعتدال.

14-المنظومة الأمنية المتكاملة لتأمين الاجتماعات السياسية وحماية الشخصيات الرفيعة

دراسة في التخطيط الاستباقي، التجهيزات التقنية، والحماية الشخصية والبيولوجية.



المقدمة

تُعدّ الاجتماعات والقمم السياسية ذات حساسية استثنائية نظراً لما تجمعه من صناع القرار وقادة الدول في حيزٍ مكاني وزماني واحد، مما يجعلها هدفاً محتملاً للتهديدات الأمنية والاستخباراتية المتنوعة. ولا يقتصر مفهوم الأمن في هذه المحافل على الحراسة المادية التقليدية، بل يمتد ليشمل منظومة وقائية واستخباراتية وتقنية وبيولوجية متكاملة.

إشكالية البحث: كيف يمكن تحقيق أقصى درجات الحماية الشاملة لمقرات الاجتماعات السياسية وللشخصيات المشاركة فيها، مع الحفاظ على انسيابية العمل الدبلوماسي والإعلامي دون إخلال بالبروتوكول؟

المبحث الأول: التخطيط الاستباقي وتقييم المخاطر (مرحلة ما قبل الاجتماع)

يرتكز نجاح العملية الأمنية على الإجراءات الاستباقية الدقيقة التي تسبق انعقاد الاجتماع بأسابيع أو أشهر، وتنقسم إلى أربعة مطالب رئيسة:

أولاً: منهجية تحليل التهديدات وتقدير المخاطر (Threat & Risk Assessment)

- تصنيف التهديدات: حصر كافة التهديدات المحتملة وتصنيفها حسب مصدرها وطبيعتها: التهديدات المسلحة المباشرة، الأنشطة الاستخباراتية والتجسسية، الاختراقات الداخلية، الاحتجاجات الجماهيرية وأعمال الشغب، بالإضافة إلى المخاطر البيئية والكوارث الطبيعية أو الحرائق.
- مصفوفة تقييم المخاطر: بناء مصفوفة لتقييم المخاطر تعتمد على معادلة (احتمالية الوقوع × شدة الأثر) لتحديد نقاط الضعف الحرجة وتوجيه الموارد والانتشار الأمني وفق أولويات مدروسة.

ثانياً: الهندسة المعمارية للحلقات الأمنية الثلاث والتحكم في الوصول

- الحلقات المتدرجة (Concentric Rings): تقسيم الموقع الجغرافي إلى ثلاث حلقات متدرجة: النطاق الخارجي (مراقبة الطرق ونقاط التفتيش البعيدة)، النطاق الأوسط (الأسوار والبوابات الرئيسية)، والنطاق الداخلي (قاعات الاجتماعات وممرات كبار الشخصيات).
- الفصل بين المسارات: تطبيق مبدأ «عدم التقاطع» عبر الفصل المكاني والزمني التام بين مسارات القادة ورؤساء الوفود، ومسارات الإعلاميين، ومسارات الخدمات اللوجستية والضيافة.
- التحصين المحيطي: إنشاء مناطق عازلة (Buffer Zones) محيطة بالمقر، وتركيب حواجز مادية وهيدروليكية مضادة للمركبات المفخخة (HVM - Hostile Vehicle Mitigation) لحماية واجهات المبنى من أي محاولة اقتحام.

ثالثاً: إدارة التصاريح والتدقيق الأمني وتأمين سلاسل الإمداد

- التدقيق الأمني ونظام التصاريح (Vetting & Credentialing): إجراء فحص أمني واستخباراتي مسبق لملفات جميع المشاركين، الوفود، الصحفيين، والموظفين الفنيين، وإصدار بطاقات تعريف ذكية مشفرة تعتمد نظام الألوان والرموز لتقييد حركة كل فرد في نطاقه الوظيفي حصراً.
- تأمين سلاسل الإمداد (Supply Chain Security): إخضاع كافة التوريدات الداخلة إلى مقر الاجتماع —بما في ذلك الأثاث، أجهزة الصوت والإضاءة، مواد الديكور، والمواد الغذائية— للفحص الدقيق والتشميع الأمني المسبق قبل نقلها إلى القاعات.

رابعاً: غرفة القيادة والسيطرة المشتركة (JOC)

- توحيد القيادة: إنشاء غرفة عمليات مركزية (Joint Operations Center) تضم ممثلين عن الأجهزة الأمنية، الحرس الدبلوماسي، الدفاع المدني، الإسعاف، وإدارة المراسم، لضمان وحدة القيادة وسرعة اتخاذ القرار وتجنب تضارب الصلاحيات أثناء الطوارئ.

المبحث الثاني: التجهيزات المادية والتقنية والأمن السيبراني

تعتمد القمم السياسية الحديثة على دمج العنصر البشري بأحدث الابتكارات التكنولوجية لسد الثغرات التقليدية وغير التقليدية:

أولاً: منظومات الكشف والتفتيش المتقدمة (CBRN & X-Ray)

- التفتيش الإشعاعي والميكانيكي: تجهيز المداخل ببوابات كشف المعادن عالية الحساسية، وأجهزة الفحص بالأشعة السينية ثنائية وثلاثية الأبعاد للأمتعة، إضافة إلى أنظمة فحص أسفل المركبات (UVIS - Under-Vehicle Inspection Systems).
- الحماية الكيميائية والبيولوجية: نشر أجهزة استشعار متطورة للكشف عن الآثار المتفجرة والمواد الكيميائية والبيولوجية والإشعاعية (CBRN)، مع تأمين أنظمة التكييف والتهوية المركزية (HVAC Security) بمرشحات كيميائية وبيولوجية لمنع ضخ أي غازات سامة داخل القاعات المغلقة، مدعومة بالكلاب البوليسية المدربة (K9).

ثانياً: أنظمة المراقبة الذكية والدفاع ضد الطائرات المسيرة (Counter-UAS)

- المراقبة المدعومة بالذكاء الاصطناعي: نشر شبكات كاميرات مراقبة عالية الدقة (حرارية وليلية) مدعومة بخوارزميات الذكاء الاصطناعي للتعرف الفوري على الوجوه، رصد الأجسام المتروكة، وتحليل السلوك البشري المريب.
- التصدي للطائرات المسيرة (Anti-Drone Systems): فرض منطقة حظر طيران (No-Fly Zone) فوق مقر الاجتماع عبر منظومات متكاملة تشمل رادارات الكشف المبكر عن الطائرات المسيرة الصغيرة (الدرونز)، وأجهزة التشويش الترددي (RF Jammers)، وأنظمة السيطرة الإلكترونية (Spoofing) لإسقاط أو إبعاد أي طائرة مسيرة مخترقة.

ثالثاً: الحرب الإلكترونية ومكافحة التجسس التقني (TSCM)

- المسح الإلكتروني الشامل: تكليف فرق متخصصة في المسح الإلكتروني (Sweeping Teams) باستخدام أجهزة تحليل الطيف الترددي (Spectrum Analyzers) وأجهزة الكشف عن الوصلات غير الخطية (NLJD) لاكتشاف الميكروفونات المزروعة أو الكاميرات الدقيقة حتى في حال كونها مطفأة.
- العزل الكهرومغناطيسي والصوتي (SCIF): تجهيز غرف الاجتماعات المغلقة بتقنيات العزل الكهرومغناطيسي (معايير TEMPEST وقفص فاراداي) لمنع تسرب الإشارات الإلكترونية، وتثبيت مولدات الضوضاء البيضاء (White Noise Generators) على النوافذ والجدران لإحباط محاولات التقاط الاهتزازات الصوتية عبر أشعة الليزر من خارج المبنى.

رابعاً: الأمن السيبراني وحماية البنية الرقمية للقمة

- عزل الشبكات وتشفير الاتصالات: إنشاء شبكات اتصال افتراضية معزولة (VLANs) لكل وفد مشارك مع تطبيق التشفير من طرف إلى طرف (End-to-End Encryption)، وتزويد فرق الأمن بأجهزة اتصال لاسلكية مشفرة ومحصنة ضد التشويش.
- تأمين أنظمة الترجمة والبنية الذكية: اعتماد تقنية الأشعة تحت الحمراء (IR) في أنظمة الترجمة الفورية بدلاً من الترددات الراديوية (RF) لضمان عدم تسرب الصوت خارج جدران القاعة، مع عزل وتأمين أنظمة إدارة المبنى الذكية (الإضاءة، المصاعد، التكييف) ضد الهجمات السيبرانية التي قد تُستخدم لإحداث الفوضى.

المبحث الثالث: تأمين التنقلات والمواكب الرسمية وإدارة الأزمات

تمثل مرحلة انتقال الوفود بين المطارات ومقرات الإقامة وقاعات الاجتماعات الحلقة الأضعف ميدانياً، وتُؤمّن عبر:

1. بروتوكولات المواكب الرسمية (Motorcade Security): تُدار المواكب الرسمية وفق معايير تكتيكية صارمة:
   - استخدام مركبات مصفحة ضد الرصاص والعبوات الناسفة، ومزودة بأنظمة إطفاء ذاتي وإطارات قادرة على السير لمسافات طويلة بعد ثقبها (Run-flat tires).
   - تنظيم الموكب وفق تشكيل تكتيكي يضم سيارة استطلاع أمامية، وسيارة الشخصية الرئيسية، وسيارة تمويه مطابقة لتشتيت الاستهداف، وسيارات التدخل السريع والدعم الطبي.

- تزويد سيارات الموكب بأجهزة تشويش إلكتروني (Jammers) لتعطيل أي عبوات تُفجّر عن بُعد عبر الإشارات اللاسلكية.

2. خطط الطوارئ والإخلاء الفوري: تحديد مسارات سير بديلة ومؤمنة مسبقاً، وتجهيز «غرف آمنة» (Safe Rooms) محصنة داخل مقر الاجتماع، وتخصيص مهبط للطائرات المروحية للإخلاء الطبي أو الأمني السريع عند الضرورة.

المبحث الرابع: الحماية الشخصية اللصيقة والأمن البيولوجي للسياسيين

ينتقل التركيز في هذا المبحث من تأمين المكان إلى تأمين الفرد ذاته وحماية أسراره الصحية والبيولوجية:

1. استراتيجية الحماية اللصيقة (Close Protection): تعتمد الحماية الشخصية المباشرة على التدرج والاستباق:

- إحاطة الشخصية السياسية بفريق حراسة مدرب على التدخل الفوري كدرع بشري وإجلاء الشخصية عند الخطر.
- إرسال فرق استطلاع متقدمة (Advance Teams) قبل وصول السياسي لمعاينة المصاعد، والمخارج، وتحديد أقرب مستشفى مجهز بفصيلة دم الشخصية.
- مرافقة طبيب طوارئ يحمل حقيبة إنعاش متكاملة ووحدات دم مطابقة.

2. الأمن الغذائي والمائي: الوقاية من التسميم الكيميائي والبيولوجي عبر إجراءات صارمة:

- اصطحاب طهاة خاصين ومكونات غذائية ومياه مشحونة من بلد السياسي في حاويات مختومة أمنياً في الزيارات عالية الحساسية.

- في حال الاعتماد على مطبخ الدولة المضيفة، يشرف ضباط أمن وكيميائيون على مراقبة عملية الطهي منذ إخراج المكونات من الثلاجات المغلقة، وتُفحص عينات من الطعام مخبرياً قبل تقديمها.
- حظر تناول أي أطعمة أو مشروبات تُقدّم كهدايا خارج البروتوكول الرسمي المعتمد.

3. حماية البصمة البيولوجية والخصوصية الصحية: تُعدّ حماية الأثر البيولوجي جزءاً أصيلاً من الأمن القومي:

- تُعامل الفضلات البشرية والآثار البيولوجية للزعماء (كالبول، البراز، اللعاب، أو بقايا الشعر) كأسرار أمن قومي؛ إذ إن تحليلها استخباراتياً قد يكشف عن أمراض مزمنة أو خطيرة، أو نوعية الأدوية التي يتناولها السياسي، مما يؤثر على تقييم قدرته على اتخاذ القرار، فضلاً عن منع استخلاص حمضه النووي (DNA).
- بناءً على ذلك، تُرافق بعض الوفود الرئاسية فرق مزودة بمراحيض متنقلة وحاويات محكمة الإغلاق لجمع الفضلات وإعادتها إلى الوطن للتخلص منها، كما تخضع دورات المياه لتفتيش أمني قبل الاستخدام ولتعقيم شامل بعده لإزالة أي أثر بيولوجي.

الخاتمة والتوصيات

يتضح مما سبق أن تأمين الاجتماعات السياسية هو عملية تكاملية مترابطة، حيث إن أي ثغرة في أحد المباحث الأربعة ——سواء كانت تخطيطية أو تقنية أو ميدانية أو بيولوجية—— كفيلة بتقويض المنظومة بأكملها.

1. التحديث المستمر لبروتوكولات الحماية لمواكبة التهديدات الناشئة، كالهجمات بالطائرات المسيرة (الدرونز) والهجمات السيبرانية المعتمدة على الذكاء الاصطناعي.
2. تعزيز التنسيق المسبق بين أجهزة الأمن في الدولة المضيفة وفرق الحماية المرافقة للوفود لتجنب التضارب الميداني.
3. إخضاع الشخصيات السياسية وطواقمها لتدريبات دورية حول الأمن الرقمي والوقائي لضمان التزامهم بالإجراءات الأمنية دون الإخلال بمتطلبات العمل الدبلوماسي.

ملحق تطبيقي: مصفوفة توزيع المهام والجهات الأمنية

يوضح الجدول الآتي التكامل بين الوحدات الأمنية المختلفة خلال مراحل انعقاد الاجتماع السياسي:

الوحدة / الفريق الأمني	نطاق المسؤولية	أبرز المهام التنفيذية
غرفة القيادة والسيطرة (JOC) وفرق الاستطلاع	التخطيط المسبق والموقع العام	تقييم المخاطر، هندسة الحلقات الأمنية، وتأمين سلاسل الإمداد والتصاريح.
وحدة الأمن التقني والسيبراني (TSCM & Anti-Drone)	القاعات، الشبكات، والمجال الجوي	كشف أجهزة التنصت، العزل الكهرومغناطيسي، التصدي للدرونز، وتأمين الترجمة.
فريق الحماية اللصيقة (Close Protection)	المحيط المباشر للشخصية السياسية	المرافقة الجسدية، التدخل الفوري كدرع بشري، وتنفيذ خطط الإخلاء السريع.

وحدة الأمن البيولوجي والطبي	الغذاء، المياه، والمرافق الصحية	فحص الوجبات مخبرياً، تأمين دورات المياه، ومنع تسرب الآثار البيولوجية (DNA).
أمن المواكب والمرور	الطرق وخطوط التنقل	تأمين المركبات المصفحة، تشغيل أجهزة التشويش، وإدارة المسارات البديلة.

قائمة المصادر والمراجع

1. دليل الأمم المتحدة لإدارة السلامة والأمن (UNDSS): United Nations Security Management System: Security Policy Manual (الفصول المتعلقة بتأمين المؤتمرات وكبار الشخصيات).
2. مبادئ الحماية اللصيقة: Executive Protection: A Professional's Guide to Bodyguarding – تأليف Richard W. Kobetz.
3. أمن المنشآت والفعاليات الكبرى: Physical Security and Critical Infrastructure Protection – تأليف Lawrence J. Fennelly.
4. الأمن السيبراني ومكافحة التجسس: إصدارات المعهد الوطني للمعايير والتكنولوجيا (NIST) حول تأمين الاتصالات والبيانات في الفعاليات الدبلوماسية.

«اللهم انفعنا بما علّمتنا، وعلّمنا ما ينفعنا يا كريم»

15–فقه الخلاف الأسري وبناء المودة بين الأبناء.



15- فقه الخلاف الأسري وبناء المودة بين الأبناء

دراسة تربوية ونفسية في إدارة خلافات الأولاد من الطفولة إلى المراهقة، ومعالجة الغيرة وتنمية الوعي السلوكي

«اللهم انفعنا بما علّمتنا، وعلّمنا ما ينفعنا يا كريم»

مقدمة

ليس في البيوت بيتٌ يخلو من اختلاف، ولا في سيرة الإخوة فصولٌ تمضي على وتيرةٍ واحدة من الصفاء الدائم دون عتابٍ أو تنافسٍ أو احتكاك. فالأبناء حين يجتمعون تحت سقفٍ واحد يمتلكون طبائع متمايزة، وحاجات نمائية متعاقبة، ومشاعر تتقلب بين الرغبة في القرب والحاجة إلى المساحة الخاصة. غير أن الفارق الجوهري بين أسرةٍ تُنهكها الخلافات اليومية فتتحول فيها الأصوات المرتفعة إلى جدارٍ يفصل بين القلوب، وأسرةٍ أخرى تخرج من كل خلافٍ أكثر نضجاً وتماسكاً، لا يكمن في غياب المشكلات، بل في فلسفة النظر إليها ومنهج إدارتها. [1]

لقد اعتاد كثيرٌ من المربين والآباء أن ينظروا إلى شجار الأبناء بوصفه خللاً طارئاً ينبغي إخماده بأسرع وسيلة ممكنة، إمّا بالزجر والوعيد، أو بإصدار أحكامٍ سريعة تُدين طرفاً وتُبرّئ آخر، أو باللجوء إلى الترضية المؤقتة التي تُسكت الضجيج دون أن تعالج الجذور. وحين يُدار الخلاف بهذه الطريقة، فإننا نُطفئ الشرارة الظاهرة ونترك الجمر متّقداً تحت الرماد؛ ليعود في صورةٍ أشد تعقيداً كلما كبر الأبناء وتبدّلت حاجاتهم النفسية والاجتماعية، وتحولت الخلافات العابرة إلى رواسب نفسية أو خصومات مكتومة.

فالخلاف بين الأبناء في جوهره ليس نقيضاً للمحبة، ولا دليلاً على فشل التربية، بل هو المختبر الاجتماعي الأول الذي يتدرّب فيه الإنسان على مهارات الحياة الكبرى: كيف يعبّر عن حاجته دون عدوان؟ وكيف يفاوض على حقه دون أن يُلغي حق غيره؟ وكيف يضبط انفعاله حين يغضب، ويعتذر حين يخطئ، ويُرمّم علاقته بمن يُحب بعد لحظة توتر؟ فالبيت الذي يُحرم فيه الأبناء من تعلّم فنّ

الاختلاف الآمن، يُرسلهم إلى الحياة العامة وهم إمّا عاجزون عن الدفاع عن حقوقهم بوعي واتزان، أو عاجزون عن التعايش السلمي مع من يختلف معهم في الرأي أو المزاج. [2]

وإذا كان التعامل مع خلافات الطفولة المبكرة يحتاج إلى صبرٍ حسيّ وتسميةٍ واعيةٍ للمشاعر، فإن المسألة تزداد دقّةً وحساسيةً حين تتقاطع مع ظاهرة الغيرة التي تتسلل إلى نفوس الأبناء بصورٍ شتّى منذ قدوم مولود جديد أو اتساع دائرة المقارنات، أو حين يعبر الأبناء عتبة المراهقة حيث تتبدّل لغة الجدل، وتشتدّ الحاجة إلى الاستقلالية والخصوصية وحفظ الكرامة. عند هذه المنعطفات، تفشل الأساليب القديمة القائمة على الأوامر المباشرة أو المحاكمات السطحية، ويصبح لزاماً على الوالدين أن ينتقلا من دور «القاضي» الذي يحكم بين متخاصمين، إلى دور «المُرشد والوسيط» الذي يبني الوعي ويُرسّخ القيم.

ومن هنا جاء هذا الكتاب محاولةً للإحاطة الشاملة بمسار خلافات الأبناء منذ خطواتهم الأولى في الطفولة، مروراً بتعقيدات الغيرة وتنافس الإخوة، ووصولاً إلى تحديات سن المراهقة وبداية الشباب؛ ليقدّم للآباء والأمهات والمربين رؤيةً تجمع بين التأصيل النفسي والتربوي والأدوات العملية القابلة للتطبيق اليومي، مستنداً إلى الأسس الفكرية والتربوية التي انطلقنا منها، ومستأنساً بنصوص الوحي والهدي النبوي والخبرة الإنسانية.

حين يعلو صوت طفلين في غرفة اللعب، أو يحتدم النقاش بين مراهقين حول مساحةٍ مشتركة أو موقفٍ عابر، غالباً ما يتبادر إلى ذهن الوالدين سؤالٌ مشوبٌ بالقلق أو الضيق: «لماذا يتشاجرون رغم أننا نوفر لهم كل شيء؟». إن هذا السؤال يكشف عن تصوّرٍ شائع يربط بين الانسجام الأسري وبين غياب الخلاف تماماً، وكأن المحبة الأخوية تعني التطابق في الرغبات والميول والاستجابات. غير أن هذا التصور يتجاهل حقيقةً نفسية وتربوية أصيلة مفادها أن القرب الجسدي والانتماء العائلي الواحد لا يلغيان الفروق الفردية بين الأبناء.

فالأبناء داخل الأسرة الواحدة — وإن جمعهم النسب والبيئة — يختلفون في الطباع الفطرية، ومستوى الحساسية الانفعالية، وسرعة الاستثارة، وترتيبهم الولادي، وحاجاتهم النمائية في كل مرحلة. فقد تجد في البيت الواحد طفلاً هادئاً يتأمل طويلاً قبل أن يتحرك، وآخر مندفعاً يبادر بالفعل قبل التفكير؛ وتجد من يميل إلى النظام والترتيب الدقيق، ومن يميل إلى الانطلاق والارتجال. وقد أشار القرآن الكريم إلى سنة الاختلاف في الطباع والمشارب في قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ [الإسراء: 84]. [3]

كما أن «الترتيب الولادي» داخل الأسرة يمنح كل ابن زاوية نظر مختلفة عن إخوته؛ فالابن البكر يعيش تجربة التفرد الأولى ثم خبرة الانتقال من طفل وحيد إلى أخ أكبر يتحمل توقعات مبكرة، والابن الأوسط يقف في موقعٍ وسط بين من يسبقه ومن يليه فيحتاج باستمرار إلى من يثبّت حضوره الخاص، والأصغر ينشأ في بيتٍ مكتمل التكوين يضم نماذج متعددة وقد يواجه مزيجاً من التدليل والحماية أو السعي لإثبات ذاته وسط من هم أقدر منه جسدياً أو لغوياً. وحين يغفل المربي عن هذه الفروق، يفسّر كل

تصرفٍ مختلف بوصفه عناداً أو تمرداً، بينما هو في كثيرٍ من الأحيان تعبيرٌ طبيعي عن اختلاف التكوين والموقع النمائي.

بين الخلاف الصحي والخصومة المزمنة

ليس كل خلافٍ بين الإخوة على درجةٍ واحدة من الدلالة أو الخطورة؛ إذ ينبغي للمربي أن يميّز بوضوح بين مسارين مختلفين كي لا يُبالغ في تهويل خلافٍ عابر، ولا يتغافل عن خصومةٍ متراكمة تنخر في جدار العلاقة.

المسار الأول هو الخلاف الصحي الطبيعي، وهو احتكاكٌ عابر ينشأ حول لعبة، أو دور، أو رأي، أو سوء فهم، سرعان ما يهدأ بعد أن يجد كل طرفٍ من يستمع إليه أو يساعده على صياغة حلٍّ منصف. هذا النوع من الخلاف يؤدي وظيفةً نمائيةً مهمة؛ فهو يعلّم الطفل حدود ذاته وحدود الآخرين، ويكسر لديه وهم التمركز حول الذات، ويدرّبه على التفاوض والتنازل المتبادل والاعتراف بوجود شريكٍ له في المكان والحق. بل إن الخلاف الصحي في بيئة آمنة يمنح الطفل جرأةً صحية على التعبير عن رأيه ورفض ما يضايقه دون اللجوء إلى الإيذاء أو الانسحاب السلبي.

أما المسار الثاني فهو الخصومة المزمنة أو الصراع المُضمر، وهو الذي يتحول فيه الخلاف من موقفٍ طارئ إلى نمطٍ ثابت من التربّص، أو السخرية المستمرة، أو الرغبة في إيقاع الأذى، أو الشعور العميق بالغبن. ولا ينشأ هذا المسار من طبائع الأبناء وحدها، بل يتغذّى غالباً على أخطاء تربوية متراكمة داخل البيت، مثل المقارنة المستمرة بين الإخوة، أو تثبيت الأدوار الجامدة («أنت العاقل دائماً»، «أنت المشاغب

دائماً»)، أو غياب العدالة في الاستماع والتقدير. وإذا تُركت هذه الخصومة دون معالجة واعية، فإنها لا تبقى حبيسة جدران الطفولة، بل قد تمتد فتترك برودًا أو حساسية مزمنة بين الإخوة في الكبر. [4]

ثقافة الأسرة بوصفها الإطار الموجّه للسلوك

تتشكّل استجابة الأبناء للخلاف من خلال «الثقافة السلوكية» السائدة في المنزل؛ فالثقافة داخل الأسرة ليست مجرد نصائح تُلقى في أوقات الصفاء، بل هي مجموع السلوكيات المتكررة التي يراها الأبناء في تعامل الوالدين مع بعضهما ومع الآخرين. فحين يرى الابن أن الخلاف بين الكبار يُدار بالصوت المرتفع أو القطيعة أو التهكّم، فإنه يستنسخ هذه اللغة تلقائياً مع إخوته؛ وحين يرى أن الاختلاف يُقابل بالهدوء، والإنصات، والبحث عن مخرجٍ يحفظ كرامة الجميع، فإن هذا النموذج يتحول مع الوقت إلى مرجعيةٍ داخلية تضبط سلوكه حتى في غياب الرقابة.

ولا يقتصر أثر الثقافة الأسرية على أسلوب الجدال وحده، بل يشمل أيضاً كيفية التعامل مع الخطأ والاعتذار؛ فالبيت الذي يعتذر فيه الكبار حين يخطئون ويُصلحون ما أفسدوه بصدق، يربّي أبناءه على أن الاعتراف بالخطأ علامة نضج وشجاعة لا نقصانٍ أو هزيمة. إن إدراك الوالدين لطبيعة الخلاف بوصفه فرصةً تربويةً للتدريب لا معركةً لإثبات السيطرة، هو الخطوة الأولى التي تُغيّر مناخ البيت بأكمله؛ فعندما يطمئن المربي إلى أن الخلاف جزءٌ من نموّ أبنائه، يهدأ انفعاله هو أولاً، ويصبح قادراً على إدارة الموقف بحكمةٍ واتزان.

عندما يحتدم الخلاف بين الأبناء، يجد الوالدان أنفسهما أمام لحظة اختبار حقيقية: هل يتدخلان لحسم النزاع فوراً، أم يتركان للمتنازعين مساحةً لتجربة حلّه، أم يمارسان دوراً وسيطاً يوجّه دون أن يصادر حق الأبناء في التعلّم؟ إن الإجابة لا تكمن في قاعدة جامدة تنطبق على كل موقف، بل في الوعي بميزان العدل وإتقان فنّ الوساطة الوالدية.

فخ «القضاء الفوري» والانحياز المقنّع

كثيراً ما يندفع المربي — بدافع الرغبة في إنهاء الضجيج أو نصرة من يبدو أضعف — إلى لعب دور «القاضي» الذي يصدر حكماً باتّاً: هذا مخطئ، وذاك مظلوم. غير أن هذا الحكم السريع غالباً ما يغفل عن التفاصيل الخفية التي سبقت الشجار، كاستفزازٍ مبطّن، أو تراكمات قديمة، أو حاجةٍ لم تُلبَّ لدى أحد الطرفين.

بل إن بعض أشكال التدخل تحمل في طيّاتها انحيازاً مقنّعاً يظهر دون قصد؛ كأن يُنحاز الوالدان تلقائياً إلى الطفل الأصغر بدعوى صغر سنّه وضعفه، أو يُحمّلان الابن الأكبر مسؤولية كل ما يحدث بدعوى أنه «الأكبر والأعقل». ومع تكرار هذا المشهد، يتكوّن لدى الأصغر شعورٌ زائف بالحصانة أو العجز، بينما يتراكم لدى الأكبر شعورٌ بالظلم والغضب المكبوت الذي قد ينفجر في صورٍ أشد قسوة أو انسحاباً. والعدل في ميزان التربية لا يعني «المساواة الآلية» التي توزع اللوم أو العقاب بالتساوي في كل واقعة، بل يعني الإنصاف؛ أي أن يُعطى كل ابن حقه بحسب ظروفه ونيته وقدرته النمائية، وأن يُحاسَب على سلوكه الفعلي لا على صورته الذهنية في ذهن الوالدين.

والإنصاف التربوي يقتضي أيضاً أن يستمع الوالدان إلى رواية كل طرف دون مقاطعة جارحة أو استخفاف بمشاعره؛ فما يبدو للكبار سبباً تافهاً كأخذ قلم أو تبديل مقعد، قد يمثل للطفل انتهاكاً لحدوده أو إهانةً لشخصه. وحين يشعر الأبناء أن الإنصاف هو ميزان البيت لا الهوى أو قوة الصوت، فإن ثقتهم بوالديهم تزداد، وتخفّ لديهم الرغبة في الاستقواء أو التمثيل أو اللجوء إلى الشكوى الكيدية.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: 58]، وقال النبي ﷺ: «اعدلوا بين أولادكم في النِّحل» (رواه البخاري ومسلم). [5]

متى نتدخل ومتى نُفسح المجال للتفاوض؟

الوساطة الوالدية الناجحة تقوم على الموازنة الدقيقة بين الحضور الداعم وبين إتاحة مساحة المبادرة للأبناء. فيكون التدخل المباشر الحازم ضرورياً حين يكون هناك خطرٌ جسدي أو أذى نفسي متعمّد، أو تجاوزٌ للحدود الأخلاقية، أو حين يبلغ الانفعال ذروةً يستحيل معها الحوار الهادئ؛ وهنا يكون التدخل لإيقاف الأذى وتهدئة الأجواء أولاً، لا لإلقاء خطبة طويلة في ذروة الغضب.

أما في الخلافات اليومية الاعتيادية التي لا تنطوي على أذى حقيقي، فيكون من الأجدى أن يقف الوالدان في موقع «الميسّر» لا «الآمر»؛ فيطرحان أسئلة تفتح باب التفكير المشترك، مثل: «ما الذي يزعج كلاً منكما الآن؟» أو «كيف يمكن أن نصل إلى حلّ يرضي الطرفين دون أن يخسر أحدكما كرامته؟». وعندما يشارك الأبناء في صياغة الحل بأنفسهم، يصبحون أكثر التزاماً به وأقدر على استحضاره في خلافاتهم المقبلة دون حاجة دائمة إلى تدخل الكبار.

توزيع المساحة والانتباه وتجنّب «صراع الأدوار»

كثيراً ما تتغذّى الخلافات الداخلية على الشعور بأن الانتباه أو المكان أو التقدير «غنيمة محدودة» يتنافس عليها الجميع؛ فإذا شعر الابن أن مكانته مهددة أو أن حضور أخيه يطغى على حضوره، تحوّل كل تفصيل صغير إلى معركة لإثبات الوجود. ومن هنا تبرز أهمية إشعار كل ابن بقيمته الفردية المستقلة، وتخصيص مساحات زمنية أو معنوية يشعر فيها كل فرد أنه ملحوظ ومسموع لذاته، لا بوصفه رقماً في قائمة الإخوة.

كما أن وضوح الأدوار وتجنّب الفوضى القيادية داخل المنزل يحميان الجميع من التنازع؛ فحين يغيب الضابط والمرجعية، وتتصدر كل نفسٍ رغبتها المطلقة، يختلّ التوازن وتضطرب حركة الأسرة. وفي المقابل، فإن إسناد أدوار واضحة ومتناسبة مع أعمار الأبناء وقدراتهم — دون تحميل الصغار ما لا يطيقون أو إقصاء الكبار عن المشاركة المسؤولة — يخلق انسجاماً عملياً يقلل من نقاط الاحتكاك اليومي.

الفصل الثالث: من «النية» و«الردّ» إلى «الفعل الواعي»

إذا كان الفصلان السابقان قد تناولا طبيعة الخلاف ودور الوالدين في ضبط ميزانه، فإن هذا الفصل ينتقل إلى الداخل؛ إلى بنية الوعي والسلوك لدى الأبناء أنفسهم، وكيف يمكن للأسرة أن تنقلهم من الاستجابات الانفعالية العفوية إلى الفعل الواعي الذي يبني الشخصية ويهذّب العلاقة.

في التربية الواعية، لا يُنظر إلى السلوك الظاهر بوصفه حدثاً معزولاً، بل بوصفه ثمرةً لباطنٍ يتشكّل عبر الزمن؛ فما يضمره الإنسان في وعيه وتصوراته يجد طريقه عاجلاً أو آجلاً إلى أفعاله وردود أفعاله. غير أن

الوعي التربوي يلحظ أيضاً أن النية وحدها — وإن كانت أصل القصد — لا تكتمل ولا تثمر أثرها الحقيقي إلا حين تترجم إلى عملٍ ملموس يضبط المسار ويُصلح الأثر.

قال النبي ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى» (متفق عليه)، وقال تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: 105]. [6]

وحين نطبّق هذا الفهم على خلافات الأبناء، نجد أن كثيرين منهم يخلطون بين «الرغبة أو الانفعال الداخلي» وبين «حق التصرف كيفما اتفق». فالغضب شعور مشروع، والضيق قد يكون مفهوماً، لكن تحويل الغضب إلى ضرب أو إهانة أو تخريب هو سلوك مكتسب يمكن تهذيبه وتعديله. وعندما يتعلّم الأبناء التفريق بين الشعور والسلوك، وبين الخطأ غير المقصود والإيذاء المتعمّد، يصبحون أقدر على مساءلة أنفسهم بدل الاكتفاء بإلقاء التهم على الآخرين.

ويظل الإنسان أسيراً للضعف والتوتر ما دام يعيش في موقع «ردّ الفعل» الدائم؛ يستفزّه موقف فيردّ بانفعال مضاعف، ويُستدرج إلى جدال فيستجيب بالحدّة ذاتها، فتتحول العلاقة إلى سلسلة متصلة من الأفعال وردود الأفعال التي تستنزف الطاقات وتُراكم الجراح. أما الفعل الواعي، فينقل الأبناء من مجرد الاستجابة الآلية إلى القدرة على الاختيار؛ فيتعلّم الطفل واليافع أن يتوقف لحظةً قبل الاستجابة، وأن يختار «التجديد» في طريقة التعامل لا تكرار الأنماط القديمة التي أثبتت فشلها.

ولا تكتمل الحكمة التربوية بإدارة لحظة الخلاف وحدها، بل بما يأتي بعدها؛ فالكثير من البيوت تنجح في إسكات صوت الشجار، لكنها تترك أثره بارداً وثقيلاً بين الإخوة لأيام. إن الخلاف الحقيقي حين يُدار بوعي يتحوّل إلى فرصة للتعلّم والترميم؛ فيتعلّم المخطئ كيف يعتذر بصدق دون انكسار أو تبرير زائف،

وكيف يصلح ما أفسده بالفعل لا بالكلام المجرد فقط، ويتعلّم المتضرر كيف يعبّر عن ألمه بوضوح، وتستعيد العلاقة دفئها حين يشعر الطرفان أن المودة الأسرية أبقى من أي سوء تفاهم عابر.

الباب الثاني: الغيرة بين الأبناء — جذورها، تجلّياتها، وعلاجها

الفصل الرابع: تشريح الغيرة عبر مراحل الطفولة

تُعدّ الغيرة من أكثر المشاعر الإنسانية دقةً وتشابكاً داخل الأسرة؛ فهي ليست شراً محضاً يُستأصل بالزجر أو الترهيب، ولا شعوراً عابراً يُهمَل بدعوى أنه «مجرد دلع أو طمع». إن الغيرة في جوهرها إنذار نفسي مبكر يعبّر عن خوفٍ من فقدان المكانة أو المحبة أو الحضور، وعن حاجةٍ عميقة إلى الاطمئنان بأن وجود الفرد في قلب والديه ومحيطه محفوظٌ لا يتزعزع.

وحين يخلط المربي بين «الغيرة» بوصفها انفعالاً إنسانياً يرتبط بالأمن العاطفي، وبين «الحسد أو الأذى المتعمّد» بوصفه سلوكاً عدوانياً، فإنه يخطئ في تشخيص الموقف منذ لحظته الأولى. فكثير من سلوكيات الغيرة لدى الصغار لا تنبع من كراهية حقيقية للأخ أو الأخت، بل من دهشةٍ وصدمة أمام واقعٍ جديد يبدو للطفل وكأنه يقتطع من رصيده العاطفي أو يزاحمه على مصدر الطمأنينة الأول. [7]

الغيرة في الطفولة المبكرة: لغة الجسد والتعلّق والحاجة إلى الأمان

غالباً ما يرتبط ظهور الغيرة في الطفولة المبكرة بأبرز منعطفٍ في حياة الطفل الأول أو المتوسط: قدوم مولود جديد، أو تغيّر موقعه في ترتيب الإخوة، أو انتقاله من كونه «المركز الحصري للرعاية» إلى شريكٍ

في الاهتمام. وفي هذه المرحلة لا يمتلك الطفل مفردات نفسية مجردة ليشرح قلقَه أو يقول: «أخشى أن يقلّ اهتمامكما بي بعد مجيء أخي»؛ ولذلك يترجم مشاعره بلغةٍ حسية وجسدية مباشرة.

فتظهر لديه أحياناً سلوكيات «نكوصية» أو تراجعية، كالعودة إلى التعلّق الشديد بالأم، أو طلب الرضاعة أو الحمل رغم قدرته على المشي والكلام، أو اضطرابات النوم، أو نوبات الغضب المفاجئة، أو محاولة انتزاع ما بيد الصغير أو لمسه بخشونة بدافع الفضول أو الاحتجاج أو اختبار ردّ فعل الكبار. وهنا لا يكون الطفل بالضرورة حاقداً بقدر ما يكون مرتبكاً أمام واقعٍ جديد يهدد شعوره بالأمان.

الغيرة في الطفولة المتوسطة: وعي المقارنة وحساسية العدالة

مع دخول الطفل مرحلة الطفولة المتوسطة، يتسع وعيه الاجتماعي وتزداد قدرته على الملاحظة والمقارنة؛ فتصبح الغيرة أكثر وعياناً وارتباطاً بالعدالة الظاهرية والمكانة بين الأقران والإخوة. فيراقب الطفل بدقة من يحصل على مديحٍ أكبر، أو هديةٍ أجمل، أو تساهلٍ أكثر، أو حرية أوسع في الخروج واللعب.

وفي هذه المرحلة قد تتخذ الغيرة أشكالاً متعددة؛ فقد تظهر في صورة حساسية مفرطة تجاه المزاح أو النقد، أو شكوى ووشاية متكررة لإيقاع الآخر في الخطأ، أو محاولة لفت الانتباه عبر المشاكسة وافتعال الضجيج، أو الانكفاء والصمت والانطواء حين يشعر الطفل بأنه أقل حظوة أو أن صوته لا يُسمع بالقدر الكافي.

قراءة ما وراء السلوك الظاهر واحتواء الرسالة الصامتة

الخطأ الشائع في التعامل مع الغيرة هو الاكتفاء بمواجهة «المظهر السلوكي» دون الإصغاء إلى «الرسالة النفسية» الكامنة خلفه. فالطفل الذي يضايق أخاه الأصغر أو يبالغ في طلب الاهتمام أو يتراجع

سلوكياً، قد يكون في حقيقته يسأل سؤالاً صامتاً: «هل ما زلتُ مهماً بالنسبة لكما؟ وهل بقي لي مكان دافئ في هذا البيت؟».

وحين يقرأ الوالدان هذا السؤال بهدوء، يتغيّر ردّ فعلهما من الغضب والاتهام إلى الطمأنة والاحتواء؛ لأن إخماد السلوك وحده دون معالجة الشعور بالخوف أو النقص يجعل الغيرة تتنكّر في أقنعة أخرى كلما كبر الطفل. فالمربي الحكيم يضبط السلوك المؤذي بوضوح، لكنه في الوقت ذاته يطوّق الجذر الشعوري بالطمأنينة والحنان. [8]

الفصل الخامس: المحفّزات الخفية للغيرة

لا تنشأ الغيرة من فراغ، ولا تقتصر على لحظة وصول طفلٍ جديد فحسب؛ بل كثيراً ما تغذّيها محفّزات خفية تتسلل إلى الحياة اليومية للأسرة دون أن ينتبه إليها الكبار، فتجعل المنافسة بين الإخوة أكثر حدة واستمراراً وتحوّل البيت من ساحة تكامل إلى ساحة موازنة وسباق.

المقارنات الصريحة والضمنية وأثرها في كسر المودة

تُعدّ المقارنة بين الإخوة — سواء جاءت صريحةً بلفظٍ مباشر مثل: «لماذا لا تكون منظماً مثل أخيك؟» أو «انظر إلى أختك كيف تحفظ دروسها»، أم ضمنيةً عبر نبرة الصوت، أو نظرات التعجب، أو الثناء المتكرر على جانبٍ دون آخر — من أشدّ العوامل إشعالاً للغيرة.

فالمقارنة لا تدفع الطفل غالباً إلى التحسّن بقدر ما تزرع في نفسه شعوراً بالنقص والمرارة، وتُشعره بأن حبه أو قبوله مشروطٌ بمطابقة نموذجٍ معيّن قد لا يناسب طبعه أو قدراته. فتتحول العلاقة بين الإخوة من

علاقة مودةٍ وتكامل إلى علاقة تنافسٍ مقلق ومستنزف، تتسلل فيها الضغينة أو التربّص حتى في المواقف البسيطة.

تفاوت القدرات والفرص وتفاوت التقدير داخل الأسرة

يختلف الأبناء في قدراتهم الذهنية، ومواهبهم الفنية أو العملية، وسرعة تعلّمهم، واستعداداتهم النفسية؛ كما قد تختلف ظروفهم أو الفرص المتاحة لكل منهم بحسب عمره أو ترتيبه أو اهتمامات الوالدين. وعندما يقيس الأهل قيمة كل ابن بمعيارٍ واحد، أو يربطون التقدير بالنتائج والنجاحات الظاهرة وحدها، فإن من يجد نفسه أبطأ أو أقل حضوراً في ذلك المجال يشعر بالحرمان والغبن.

وقد يتضاعف هذا الشعور حين يلاحظ الابن أن التقدير العاطفي أو الاحتفاء بالإنجاز يتركز حول نمطٍ واحد من التفوق (كالتفوق الدراسي أو الهدوء الظاهري)، بينما تُهمل أو تُستصغر جوانب قوة أخرى قد يمتلكها ابن آخر كالقدرة على الإصلاح، أو روح الدعابة، أو المهارة اليدوية، أو الحضور الاجتماعي الدافئ.

أثر المحفّزات الخفية في بناء صورة الذات والاستحقاق

تترك هذه المحفّزات الخفية أثراً عميقاً في «صورة الذات» لدى كل ابن، وتمتد آثارها إلى نظرته إلى نفسه وإلى الآخرين على المدى الطويل.

فقد يتشكّل لدى من يشعر بالحرمان أو المقارنة المستمرة إحساسٌ مزمن بأنه «أقل شأناً» أو «غير كافٍ»، وهو شعور يثقل كاهله في علاقاته المستقبلية ويجعله إمّا كثير القلق والحساسية، أو مندفعاً نحو إثبات الذات بطرق متوترة. وفي المقابل، قد يتشكّل لدى من يعتاد التفضيل أو التمركز حول الذات

شعورٌ هشّ بالاستحقاق يجعل أي تراجعٍ بسيط في الاهتمام أو أي رفضٍ لمطلبه يبدو له كأنه ظلمٌ كبير أو انتقاصٌ من قدره.

الفصل السادس: خطوات عملية لاحتواء الغيرة وتوجيهها

إدراك جذور الغيرة ومحفّزاتها الخفية يفتح الباب أمام خطوةٍ أعمق وأكثر إثماراً: كيف نحتوي الغيرة في لحظتها، وكيف نوجّه طاقتها نحو النمو والتكامل بدل الخصام والاستنزاف؟ فالغيرة لا تُعالج بالإنكار ولا باللوم القاسي، بل بإشعار كل ابن بالأمان العاطفي والعدل والتفرد، وبإعادة صياغة العلاقة بين الإخوة على أساس الشراكة لا المنافسة.

أولاً: تعزيز التفرد والخصوصية لكل طفل

لكي يطمئن الطفل إلى مكانته، يحتاج أن يشعر أنه «مُقدَّر لذاته» لا بمقارنته بغيره؛ ويتحقق ذلك عبر ممارسات عملية بسيطة ومتواصلة. ومن أبرزها تخصيص وقت فردي نوعي لكل طفل، حتى لو كان قصيراً، يختص فيه كل طفل بوالده أو والدته في نشاط أو حديث يراعي اهتمامه وعمره، بعيداً عن ضجيج الإخوة أو المقارنة بهم.

كما يشمل ذلك الاحتفاء بالاختلاف لا بتوحيد القوالب؛ عبر تشجيع مواهب كل طفل وميوله الفردية، وتجنّب التسميات النمطية المغلقة التي تحصر الطفل في قالبٍ جامد مثل «الهادئ» أو «العصبي» أو «الكسول»؛ لأن الطفل يميل إلى تبنّي الصورة التي يكررها الكبار على مسامعه.

ثانياً: إشراك الإخوة في أدوار إيجابية دون إثقال كاهلهم

حين يشعر الأخ الأكبر أو الأوسط أنه «شريك في الرعاية» لا «منافس مزاحَم»، تتغير نظرته إلى أخيه؛ شريطة أن يكون الدور متناسباً مع عمره وقدرته النفسية. ويكون ذلك عبر إسناد أدوار اختيارية ومحبّبة، مثل اختيار لعبة مشتركة، أو المساعدة في ترتيب زاوية اللعب، أو تقديم شيء بسيط للصغير، مع الثناء الصادق على مبادرته.

وفي الوقت ذاته، يجب حماية الأخ الأكبر من «الأبوة أو الأمومة المبكرة القسرية»؛ فلا يُطلب من طفلٍ في السابعة أو العاشرة أن يتحمل مسؤولية ضبط سلوك أخيه طوال الوقت أو أن يكبت غضبه لمجرد أنه «أكبر»؛ فذلك يرهقه ويزيد من غيظه الخفي ويحوّل علاقته بأخيه إلى عبء ثقيل.

ثالثاً: تحويل التنافس الضار إلى تكامل وتعاون وترميم فوري

الغيرة تزدهر في بيئةٍ يرى فيها كل طرف أن نجاح الآخر أو حصوله على شيء يمثل خسارةً له، وتضعف حين يدرك الجميع أن التعاون يرفع من شأن الجميع. ويمكن تحقيق ذلك عبر ابتكار أهداف مشتركة يجمع فيها الإخوة جهودهم لإنجاز مهمة أو مشروع منزلي أو ترتيب مساحة مشتركة، والاحتفاء بالتعاون والإيثار أكثر من التنافس الفردي الحاد. [9]

وإذا صدر عن أحد الأبناء تصرف بدافع الغيرة —— كإتلاف شيء أو إيذاء لفظي أو جسدي —— فإن التعامل التربوي المتزن يقوم على ضبط السلوك بحزم هادئ دون تحقير، ثم مساعدته بعد أن يهدأ على فهم ما كان يشعر به وعلى «الترميم» العملي لما بدر منه بطريقة إيجابية تعيد الدفء والثقة إلى العلاقة بين الإخوة.

الهوامش والتعليقات

[1] انظر في أصل قيمة الصلح وإصلاح ذات البين في الإسلام قول الله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: 1]، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: 10].

[2] يشير التوجيه النبوي إلى ضبط النفس عند الغضب وتجنّب الشحناء في قوله ﷺ: «ليس الشديد بالصُّرَعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب» (متفق عليه)، وقوله: «لا تباغضوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، وكونوا إخواناً» (متفق عليه).

[3] قال المفسرون في «شَاكِلَتِهِ»: أي على طريقته ومذهبه وسجيّته التي جُبل عليها وتناسب حاله. انظر: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن؛ وابن كثير، تفسير القرآن العظيم.

[4] انظر التحذير القرآني من النزاع والتنافر وأثره في إضعاف الكيان المشترك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: 46].

[5] العدل بين الأبناء في العطية والاهتمام والإنصاف أصلٌ تربوي عظيم يحفظ القلوب من الشحناء والضغينة.

[6] النية الصادقة تؤسس القصد، والعمل المنضبط يُحقّق الأثر السلوكي والتربوي في الواقع.

[7] انظر في التحذير من الحسد والتباغض والسعي إلى تزكية النفوس في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: 54]، وقول النبي ﷺ: «لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا... وكونوا عباد الله إخواناً» (رواه مسلم).

[8] انظر توجيه القرآن إلى معالجة الغضب والانفعال بالحلم والكظم والعفو: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: 134].

[9] يؤكد القرآن الكريم قيمة التعاون على الخير والإحسان في قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: 2].

والحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم.
2. البخاري، محمد بن إسماعيل. الجامع الصحيح المختصر (صحيح البخاري).
3. مسلم، مسلم بن الحجاج. المسند الصحيح المختصر (صحيح مسلم).
4. الترمذي، محمد بن عيسى. سنن الترمذي.
5. الطبري، محمد بن جرير. جامع البيان في تأويل القرآن.
6. ابن كثير، إسماعيل بن عمر. تفسير القرآن العظيم.
7. الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد. إحياء علوم الدين.
8. الشعراوي، محمد متولي. خواطر الشعراوي في تفسير القرآن الكريم.
9. العيسوي، عبد الرحمن. سيكولوجية الإبداع والأسرة والطفولة.
10. مراجع معاصرة في علم النفس التربوي والنمائي وإدارة الصراع الأسري والتربية الإيجابية.

16- تحولات التشويش الفكري: من الدهشة الفلسفية إلى الارتباك المعرفي في عصر الإنترنت السائل والذكاء الاصطناعي.



1. المقدمة (Introduction)

يُعدّ التشويش الفكري (Intellectual Disorientation) أو الارتباك الذهني والذهول الفلسفي حالة إبستمولوجية ونفسية مركّبة تعتري الذهن البشري عندما تعجز الأدوات المعرفية التقليدية والمقولات الموروثة عن تفسير ظاهرة مستجدّة أو استيعاب تناقض معرفي طارئ. ففي حين تأسّست الفلسفة الكلاسيكية على فكرة أن الحيرة والتشويش هما الرحم الفعلي الذي تولد منه الحقيقة والدهشة المعرفية الأولى (Thaumazein)، تتعامل العلوم المعرفية الحديثة وعلم النفس الإدراكي مع التشويش بوصفه اختلالاً في معالجة المعلومات وضغطاً وظيفياً على الهندسة المعرفية للإنسان.

إن التتبع التاريخي لمفهوم التشويش يكشف عن تحول جوهري في وظيفته؛ فقد انتقل من كونه «أزمة وعي فردية» يمرّ بها المفكر في لحظات التحول الكبرى أو القطائع المعرفية، ليصبح في القرن الحادي والعشرين — مع الانتقال إلى «عصر الإنترنت السائل» وتصاعد تطبيقات الذكاء الاصطناعي التوليدي والشبكات العصبية العميقة — «حالة بنيوية مستدامة» تمسّ البنية الإدراكية لمجتمعات المعرفة برمّتها. فالإنسان المعاصر لم يعد يواجه نقصاً في المعلومة يدفعه إلى التأمل، بل يواجه فيضاً معلوماتياً وخوارزمياً يفوق طاقته الاستيعابية، ويُربك قدرته على التمييز بين الحقيقة والمحاكاة.

تهدف هذه الورقة البحثية الموسعة إلى تفكيك مفهوم التشويش الفكري وتتبّع تحولاته عبر أربعة أبعاد متكاملة: الجذور الفلسفية والتاريخية بوصفه أداة هدم وبناء، المقاربة المعرفية وعلم النفس الإدراكي، تجلياته المعاصرة في الفضاء الرقمي السائل، وأخيراً فلسفة الذكاء الاصطناعي والارتباك الخوارزمي ومقارنته بالعقل البشري.

2. الإطار الفلسفي والمعرفي للتشويش (من الدهشة إلى التفكيك)

يمرّ مفهوم التشويش الفكري في الفكر الإنساني بمسار مزدوج: مسار فلسفي يرى فيه شرطاً ضرورياً لتحرير العقل من البداهات الزائفة، ومسار نفسي—معرفي يرصده بوصفه آلية تكيّف أو استجابة لضغوط الإدراك.

أ. الجذور الفلسفية: التشويش كأداة هدم وبناء

لم يكن التشويش في تاريخ الفلسفة مجرد عارض سلبي أو عجز ذهني، بل شكّل منهجاً مقصوداً لإعادة تأسيس المعرفة، وهو ما يتجلى في أربع محطات فلسفية مفصلية:

- التوليد السقراطي والاعتراف بالجهل (Aporia): اعتمد سقراط في محاوراته منهجاً جدلياً يقوم على «التهكّم» و«التوليد»، وغايته الأولى زعزعة يقين المحاور وإيصاله إلى حالة حادة من التشويش المفهومي والاعتراف بالجهل، وهو ما يُعرف اصطلاحاً بـ«الأبوريا» (Aporia) أي المأزق الفكري أو الطريق المسدود. فمن خلال التظاهر بالجهل وتوجيه أسئلة استقصائية متدرجة حول مفاهيم يظنها المحاور بديهية (كالعدالة، والفضيلة، والشجاعة)، ينكشف التناقض الداخلي في تصوراته

السطحية. ويُعدّ هذا التشويش عند سقراط وأرسطو من بعده خطوة تأسيسية لا غنى عنها؛ إذ لا يمكن للعقل أن يبدأ رحلة التوليد المعرفي والبحث الأصيل عن الحقيقة ما لم يتحرر أولاً من وهم المعرفة الجاهزة (أرسطو، ما بعد الطبيعة) [1].

- الشك المنهجي عند ديكارت (تطهير العقل وبناء اليقين): مع مطلع الفلسفة الحديثة، نقل رينيه ديكارت التشويش من ساحة الحوار الخارجي إلى المختبر الذاتي للعقل عبر «الشك المنهجي» (Methodological Doubt). فقد قرّر ديكارت إدخال ذاته في حالة مؤقتة من التشويش الجذري الشامل، بالتشكيك في معطيات الحواس الخادعة، وفي الحقائق الرياضية، بل وفي وجود العالم الخارجي ذاته عبر فرضية «الشيطان الماكر». لم يكن هدف ديكارت الإبقاء على هذا التشويش بوصفه غاية عدمية كما لدى الشكّاكين، بل توظيفه أداة لتطهير العقل من الرواسب الموروثة؛ ومن قلب هذا الارتباك المفهومي الكامل انبثقت الحقيقة اليقينية الأولى الصلبة: «أنا أشك، إذن أنا أفكر، إذن أنا موجود» (ديكارت، 1985) [2].
- الغثيان والعبثية عند الوجوديين (سارتر وكامو): في القرن العشرين، اتخذ التشويش الفكري بُعداً وجودياً وأنطولوجياً حاداً؛ إذ نظر الفلاسفة الوجوديون إليه باعتباره الصدمة الإدراكية التي تصيب الإنسان حين يواجه حريته المطلقة وغياب المعنى القبلي الجاهز للوجود. يمثّل «الغثيان» (La Nausée) عند جان بول سارتر تلك الحالة من الدوار المعرفي والنفسي التي تنتاب الوعي حين تتجرّد الأشياء من أسمائها ووظائفها المألوفة، فتبدو عارية، كثيفة، ومجردة من أي تفسير عقلاني مسبق (سارتر، 1966) [3]. أما عند ألبير كامو، فينشأ التشويش الفكري من «العبث»

(L'Absurde)، أي تلك الهوّة الصادمة بين توق الإنسان العقلاني العميق إلى النظام والوضوح والمعنى، وبين صمت الكون اللامبالي وعشوائيته العصيّة على الاختزال (كامو، 1983) [4].

- التفكيكية وما بعد الحداثة (ديريدا وفوكو): تحوّل التشويش الفكري في فلسفة ما بعد الحداثة من مرحلة انتقالية تقود إلى اليقين، إلى استراتيجية نقدية مستمرة لتقويض المركزيات والأنساق المغلقة. يهدف «التفكيك» (Deconstruction) عند جاك ديريدا إلى إحداث تشويش بنيوي في النصوص والخطابات عبر كشف ثنائياتها المتعارضة وتناقضاتها الكامنة، وإثبات أن المعنى ليس حضوراً ثابتاً ونهائياً، بل هو أثر متغيّر ومؤجّل باستمرار في سلسلة لا متناهية من الدوال (ديريدا، 2010) [5]. وفي السياق ذاته، يعمل ميشيل فوكو عبر منهجي «الأركيولوجيا» و«الجينيالوجيا» على تشويش البداهات التاريخية والاجتماعية التي يتعامل معها الناس بوصفها حقائق طبيعية مطلقة، كاشفاً كيف تصنع مؤسسات السلطة–المعرفة هذه المفاهيم وتفرضها بوصفها معايير للعقلانية والسواء (فوكو، 1990) [6].

ب. المقاربة المعرفية وعلم النفس الإدراكي

بالتوازي مع الطرح الفلسفي، قدّمت العلوم المعرفية (Cognitive Sciences) تفسيراً وظيفياً وبنيوياً لآلية حدوث التشويش داخل الدماغ البشري، بوصفه تفاعلاً بين محدودية البنية العصبية وتعقيد البيئة المعلوماتية:

- العبء المعرفي الزائد (Cognitive Overload): استناداً إلى نظرية العبء المعرفي التي طوّرها جون سويلر، تمتلك الذاكرة العاملة (Working Memory) لدى الإنسان سعة استيعابية

ومؤقتة محدودة للغاية لتجهيز المعطيات الجديدة وربطها بالذاكرة طويلة المدى. وعندما تتدفق معلومات كثيفة أو متناقضة أو سريعة الإيقاع تفوق هذه السعة المحدودة، ينهار نظام الفلترة الذهني، فيدخل العقل في حالة تشويش وظيفي تؤدي إلى تراجع الفهم العميق، وبطء اتخاذ القرار، وشلل المعالجة التحليلية (سويلر، 1988) [7].

- التنافر المعرفي (Cognitive Dissonance): صاغ عالم النفس الاجتماعي ليون فيستنجر هذا المفهوم ليشرح حالة التشويش الحاد والتوتر النفسي الذي يعتري الفرد عندما يواجه معطيات أو أدلة واقعية تتصادم جذرياً مع منظومته الفكرية أو معتقداته الراسخة. ويخلق هذا التنافر ضغطاً داخلياً يدفع العقل إلى محاولة استعادة الاتزان عبر مسارين: إما مسار التكيّف الواعي بتعديل الأفكار والمخططات الذهنية، أو مسار الدفاع النفسي باللجوء إلى الإنكار، والتبرير الانتقائي، وتشويه الإدراك لحماية الذات من ألم الاعتراف بالخطأ (فيستنجر، 1957) [8].
- عدم الاتزان وإعادة الهيكلة المعرفية (Cognitive Restructuring): يرى عالم النفس الإدراكي جان بياجيه أن النمو المعرفي وتطوّر الذكاء الإنساني لا يتحققان في حالات السكون واليقين، بل يحدثان عبر صدمات إدراكية تُخلّ بحالة «التوازن العقلاني» (Equilibration) وتُدخل المتعلّم في حالة مؤقتة من عدم الاتزان والتشويش. وللخروج من هذا الارتباك، يضطر العقل إلى تفعيل آلية «المواءمة» (Accommodation) لإعادة هيكلة مخططاته الذهنية وتوسيعها كي تستوعب المعرفة الجديدة؛ وبذلك يصبح التشويش المعرفي المحرّك الأساسي للنضج العقلي والابتكار (بياجيه، 1970) [9].

3. التشويش الفكري في عصر «الإنترنت السائل»

استناداً إلى سوسيولوجيا زيجمونت باومان حول «الحداثة السائلة» (Liquid Modernity) — حيث تذوب المؤسسات الصلبة والمرجعيات الثابتة وتفقد الأنماط الاجتماعية استقرارها قبل أن تتبلور — يتحول التشويش الفكري في الفضاء الرقمي المعاصر من حالة تأملية فردية عابرة إلى سمة مجتمعية وبنيوية مستدامة (باومان، 2016) [10]. ويتغذى هذا التشويش الرقمي على ثلاث آليات مترابطة:

- سيولة الحقائق وتشتت الانتباه (Post-Truth & Attention Fragmentation): في بيئة اقتصاد الانتباه (Attention Economy) والتدفق اللامتناهي للمحتوى عبر المنصات الرقمية، تذوب الحدود الفاصلة بين الحقيقة الموثّقة والرأي الانطباعي والشائعة المصنّعة، وهو ما أفرز عصر «ما بعد الحقيقة» (Post-Truth) حيث تتراجع المعايير الموضوعية أمام الاستثارة العاطفية السريعة. هذا الإغراق المعلوماتي المتواصل يحرم العقل من «الزمن التأملي» اللازم للتحليل والنقد والتثبّت، مما ينتج حالة تشويش دائم وتشتتاً مزمناً في القدرة على التركيز والاستيعاب العميق (كار، 2010) [11].
- غرف الصدى والتحيز التأكيدي (Echo Chambers & Confirmation Bias): تعمل الخوارزميات التوصية في الشبكات الرقمية على عزل المستخدم داخل «فقاعات ترشيح» (Filter Bubbles) وغرف صدى معرفية مغلقة لا تعكس له إلا ما يوافق ميوله وأفكاره المسبقة. ونتيجة هذا التجانس المصطنع، يفقد العقل مرونته الحوارية؛ وحين يصطدم المستخدم قسراً

بواقع متعدد الرؤى أو بسردية مغايرة لا تشبه نسخته المفصّلة خوارزمياً، يصاب بصدمة تشويش عنيفة واستقطاب حاد نتيجة غياب التأهيل الإدراكي للتعامل مع التعدد الاختلافي (باريزر، 2011) [12].

- الاغتراب المعرفي وفجوة اللغة المفهومية: أدّت السرعة الفائقة للتحولات التقنية إلى تحول الإنسان من «باحث عن الحكمة» يسعى إلى الفهم الشمولي، إلى «مستهلك للبيانات» يلهث خلف الشذرات المعلوماتية المتناثرة، مما يُفقد المعرفة عمقها الإنساني وسياقها القيمي. ويُضاف إلى ذلك «فجوة اللغة» والقصور المفهومي أمام سيل المصطلحات التكنولوجية المتسارعة (مثل الخوارزميات التوليدية، والواقع المعزز، والفضاء السيبراني)، حيث تتجاوز الأداة التقنية قدرة اللغة الطبيعية والوعي الجمعي على استيعاب دلالاتها وأبعادها الأخلاقية، مما يولّد ارتباكاً مفهومياً مستمراً.

4. أمثلة تطبيقية ومقارنات (بين العقل والآلة)

أ. أمثلة تطبيقية على التشويش الفكري وكيفية التجاوز

- معضلة اتخاذ القرار الطبي (العقل البشري): يواجه طبيب سريري حالة مريض تظهر عليه أعراض متناقضة تتطابق في آنٍ واحد مع مرضين نادرين يختلف البروتوكول العلاجي لكل منهما جذرياً. هنا يقع الطبيب في تشويش معرفي حاد نتيجة تضارب المؤشرات الإكلينيكية. ويتم تجاوز هذا التشويش بشرياً عبر استدعاء التفكير التحليلي المنظم، والاستشارات الطبية البينية، وتفكيك المعطيات الكبرى إلى مؤشرات حيوية دقيقة، مع إبقاء هامش الوعي النقدي مفتوحاً لاحتمالات التشخيص التفريقي.

- ظاهرة «الهلوسة» في الذكاء الاصطناعي (الآلة): عند توجيه سؤال فلسفي مركّب أو إشكالية تاريخية متناقضة لنماذج اللغات الكبيرة (LLMs)، تقع الشبكة العصبية في «تشويش خوارزمي» نتيجة فجوة في بيانات التدريب أو تضارب الاحتمالات الإحصائية (راسل ونورفيغ، 2020) [13].

ولأن الآلة تفتقر إلى «الوعي السقراطي بالجهل»، فإنها تسدّ هذا الفراغ الاحتمالي بإنتاج «هلوسة رقمية» (Hallucination)؛ أي صياغة إجابة متماسكة لغوياً ومقنعة في ظاهرها لكنها مختلقة معرفياً. ويُعالج هذا الخلل هندسياً عبر تقنيات التوليد المعزز بالاسترجاع (RAG) والتعلم المعزز من التغذية الراجعة البشرية (RLHF).

ب. جدول مقارنة أكاديمي: طبيعة التشويش وإدارته

وجه المقارنة	التشويش المعرفي البشري	التشويش في الذكاء الاصطناعي
المُحفّز الرئيسي	تضارب القناعات، الانفعالات الوجدانية، وتدفق معلومات يفوق السعة الإدراكية للذاكرة العاملة.	تضارب الأوزان الاحتمالية، نقص البيانات المرجعية، أو تلوث بيانات التدريب.
المظهر السلوكي	قلق معرفي، شك منهجي، دهشة فلسفية، أو ارتباك إدراكي وتردد في الحكم.	هلوسة رقمية (اختلاق معلومات)، تراجع دقة التنبؤ، أو تعارض المخرجات.

وجه المقارنة	التشويش المعرفي البشري	التشويش في الذكاء الاصطناعي
آلية التجاوز	إعادة الهيكلة المعرفية، التفكير النقدي، وتوسيع أطر الوعي لاستيعاب التناقض.	ضبط المعلمات (Fine-Tuning)، تطهير البيانات، والربط بقواعد معرفة موثقة (RAG).
القيمة الإبستمولوجية	مُحرّك أساسي للإبداع، والابتكار، والنضج الفلسفي، والوعي بالذات وحدود المعرفة.	مؤشر هندسي تشخيصي لكشف الثغرات البرمجية وتطوير كفاءة الأنظمة الخوارزمية.

5. الخاتمة (Conclusion)

يخلص هذا البحث الموسّع إلى أن التشويش الفكري ليس عجزاً إدراكياً محضاً أو عثرة سلبية طارئة، بل هو ضريبة بنيوية حتمية ترافق كل نسق ذكي ومعقّد يواجه بيئة ديناميكية متغيرة. ففي الفلسفة، يمثّل التشويش شرارة التفكير والوعي وتحرير العقل من الأوهام الموروثة؛ وفي علم النفس المعرفي هو دافع إعادة الهيكلة والنمو الإدراكي؛ وفي الذكاء الاصطناعي هو معيار هندسي لقياس كفاءة الخوارزميات وتحديث قواعد بياناتها.

غير أن خطورة التشويش في عصر الإنترنت السائل تكمن في تحوّله من «تشويش مؤقت يفتح آفاق الدهشة والنمو» إلى «تشويش مستدام وممنهج» ينهك القدرات النقدية ويصيب العقل بالكسل المعرفي

والاستقطاب. وتتطلب مواجهة هذا التشتت الرقمي الحديث تفعيل استراتيجيات التفكير النقدي، وتطوير التربية الإعلامية والرقمية، وإعادة بناء الوعي الدهشي البشري للتحرر من سلطة الأجوبة الجاهزة والخوارزميات الموجهة.

6. الهوامش والمصادر (Footnotes & References)

---

[1] أرسطو. ما بعد الطبيعة. ترجمة: ألبير مقار. القاهرة: دار المعارف.

[2] ديكارت، رينيه. (1985). تأملات في الفلسفة الأولى. ترجمة: عثمان أمين. القاهرة: دار المعارف.

[3] سارتر، جان بول. (1966). الوجود والعدم. ترجمة: عبد الرحمن بدوي. بيروت: دار الآداب.

[4] كامو، ألبير. (1983). أسطورة سيزيف. ترجمة: أنيس زكي حسن. بيروت: منشورات عويدات.

[5] ديريدا، جاك. (2010). في علم الكتابة. ترجمة: أنور مغيث. القاهرة: المركز القومي للترجمة.

[6] فوكو، ميشيل. (1990). نظام الخطاب. ترجمة: محمد سبيلا. بيروت: دار التنوير.

[7] Sweller, John. (1988). "Cognitive load during problem solving: Effects on learning," Cognitive Science, Vol. 12, No. 2, pp. 257–285.

[8] فيستنجر، ليون. (1957). نظرية التنافر المعرفي (A Theory of Cognitive Dissonance). إيفانستون: رومان وباترسون.

[9] بياجيه، جان. (1970). بنيوية المعرفة وعلم النفس المعرفي. ترجمة: ممدوح الدقي. القاهرة: دار الفكر العربي.

[10] باومان، زيجمونت. (2016). الحداثة السائلة. ترجمة: حجاج أبو جبر. بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر.

[11] كار، نيكولاس. (2010). السطحيون: ما تفعله الإنترنت بأدمغتنا (The Shallows). ترجمة: محمود ماجد عمر. أبو ظبي: هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث.

[12] باريزر، إيلي. (2011). فقاعة الترشيح: ما تخفيه الإنترنت عنك (The Filter Bubble). نيويورك: بنغوين برس.

[13] راسل، ستيوارت، ونورفيغ، بيتر. (2020). الذكاء الاصطناعي: نهج حديث (Artificial Intelligence: A Modern Approach). الطبعة الرابعة. نيوجيرسي: بيرسون.

17-جدوى المنابر الواقعية والمنصات الرقمية في خدمة الباحث والأديب (دراسة تحليلية إحصائية في ضوء تحديات الاجتهاد الفردي واستدامة الأثر الكتابي)



مقدمة: إشكالية الوسيط واستدامة الأثر المعرفي

تُعدّ إشكالية اختيار الوسيط الأنسب لإيصال الفكر والأدب والبحث العلمي من أبرز التحديات التي تواجه المثقف والباحث المعاصر، لا سيما في ظل التحولات الرقمية المتسارعة التي أعادت تشكيل خارطة التلقي والتأثير. إن المفاضلة بين المنابر الواقعية (الصالونات الثقافية، والندوات، والمؤتمرات الحضورية)، والمنصات الرقمية (تطبيقات البث عن بُعد، ومواقع التواصل الاجتماعي)، وبين التوثيق الكتابي الرصين (تأليف الكتب وإصدارها)؛ تكشف عن تباين عميق في طبيعة الأثر، واستدامته، وجدوى الجهد المبذول، خاصة عندما يكون المشروع قائماً على «الاجتهاد الفردي» غير المدعوم مؤسسياً[1].

أولاً: المنابر على أرض الواقع (الصالونات والندوات الحضورية)

تمثل المنابر الواقعية الشكل التقليدي والأعرق للتفاعل الثقافي والعلمي، ولها خصائصها الإنسانية والرمزية التي لا يمكن إنكارها، كما أن لها تحدياتها القاسية وتكاليفها الباهظة على المجتهد الفرد.

1. المزايا ونقاط القوة:

- عمق التفاعل الإنساني: اللقاء المباشر يخلق حالة من «الألفة الفكرية» والكاريزما التي تفتقدها الشاشات، وتُبنى من خلاله علاقات مهنية وشخصية متينة قد تفتح آفاقاً لمشاريع بحثية وأدبية مشتركة.

- جدية الحضور والانتقاء: غالباً ما يكون جمهور القاعات الحضورية جمهوراً نخبوياً أو مهتماً حقيقياً، إذ تكبّد عناء الانتقال وتخصيص الوقت، مما يرفع من مستوى النقاش والمداخلات.
- الشرعية والرمزية: تمنح المنابر الواقعية ـــخاصة ذات الطابع الأكاديمي أو الثقافي العريقـــ ثقلاً معنوياً واعترافاً اجتماعياً بمكانة الباحث أو الأديب في محيطه الثقافي.

2. مأزق «الاجتهاد الفردي» في المنابر الواقعية:

- الاستنزاف المادي واللوجستي: إدارة صالون ثقافي أو تنظيم ندوات بشكل فردي يستهلك طاقة الباحث ووقته وماله (استئجار قاعات، ضيافة، تنسيق دعوات)، مما قد يسرقه من مشروعه البحثي أو الإبداعي الأصلي.
- محدودية الرقعة الجغرافية: مهما بلغ نجاح الندوة الواقعية، يظل أثرها محصوراً في بضع عشرات من الحاضرين في مدينة بعينها، وفي لحظة زمنية محددة لا تتجاوز الساعتين.
- ظاهرة «الجمهور العابر»: كثير من رواد الصالونات الثقافية يحضرون بدافع المجاملة الاجتماعية أو الترويح عن النفس، وما إن يُغلق باب القاعة حتى يتبخر الأثر الفكري، ولا يتحول الحضور إلى قراء حقيقيين أو متابعين دائمين لإنتاج المحاضر.

ثانياً: المنابر الرقمية (التطبيقات عن بُعد ومواقع التواصل)

لقد أحدثت الثورة الرقمية انقلاباً في مفهوم «الانتشار»، وحررت الباحث والأديب من قيود المكان والوساطة المؤسسية، لكنها في المقابل فرضت شروطها الخاصة وآفاتها المعرفية.

1. هل غدت المنابر الرقمية أجدى في إيصال الصوت؟

نعم، من حيث الانتشار الأفقي والوصول الجغرافي، تفوقت المنصات الرقمية بما لا يقاس. يمكن لباحث يجلس في مكتبه أن يصل صوته في لحظة واحدة إلى آلاف المهتمين من المحيط إلى الخليج، بل وفي شتى بقاع العالم، دون تكلفة مادية تُذكر. كما أن خاصية «التسجيل والأرشفة» (على يوتيوب أو منصات البودكاست) تجعل المحاضرة متاحة لسنوات، فيشاهدها الباحثون والطلاب في أوقات مختلفة. وتؤكد الإحصاءات الحديثة تنامي هذا النمط؛ إذ تشير استطلاعات اتجاهات الاستماع الرقمي إلى أن 61% من مستخدمي البودكاست باتوا ينفقون أوقاتهم على المحتوى الصوتي المعرفي والحواري أكثر من التلفزيون، وأن 82.4% منهم يخصصون له ما يتجاوز 7 ساعات أسبوعياً[2].

2. آفات الفضاء الرقمي وتحدياته:

- سطحية التلقي وثقافة «التمرير السريع»: جمهور مواقع التواصل غالباً ما يبحث عن المعلومة السريعة أو الإثارة العاطفية، ويعزف عن الأطروحات العميقة والبحوث المركّبة. وقد كشفت دراسات قياس المقروئية لدى الشباب الجامعي أن 56% من المبحوثين أقرّوا بأن استخدام شبكات التواصل الاجتماعي أدى إلى انخفاض قراءتهم للصحف والمجلات والمواد المطوّلة انخفاضاً حاداً[3].
- وهم التفاعل: الإعجابات والمشاركات الرقمية غالباً ما تكون تفاعلات لحظية سطحية، لا تعكس استيعاباً حقيقياً للمحتوى ولا تضمن ولاءً فكرياً أو قراءة متأنية.

- خضوع المحتوى للخوارزميات: وصول صوت الباحث عبر هذه المنصات مرهون بمدى توافق طرحه مع خوارزميات المنصة وموجات «الترند»، وهو ما قد يضطر البعض لتبسيط أفكارهم حدّ الإخلال، أو الانجرار وراء الجدليات العقيمة لكسب المشاهدات.

ثالثاً: مقارنة تحليلية بين المنابر الواقعية والمنصات الرقمية

وجه المقارنة	المنابر على أرض الواقع	التطبيقات عن بُعد ومواقع التواصل
نطاق الوصول	محدود جغرافياً وزمنياً (عشرات الحاضرين في قاعة محددة).	مفتوح عالمياً وممتد زمنياً (آلاف المتابعين عابرين للحدود).
التكلفة على الفرد	مرتفعة (جهد بدني، وقت، تكاليف قاعات وضيافة وتنظيم).	منخفضة جداً (تعتمد على الجهد المعرفي والتقني فقط).
عمق التفاعل	عميق، مباشر، يبني شبكات علاقات إنسانية ومهنية حقيقية.	واسع لكنه غالباً سطحي، سريع، وأقل التزاماً.
استدامة الأثر	ينتهي بانتهاء الجلسة ما لم يُوثّق كتابياً أو مرئياً.	قابل للأرشفة والبحث والرجوع إليه مستقبلاً (يوتيوب/بودكاست).
نوعية الجمهور	نخبوي أو مجامل (بحسب طبيعة الدعوة والعلاقات الشخصية).	متنوع جداً (يجمع بين المتخصص الجاد والعابر والفضولي).

رابعاً: مؤشرات إحصائية ونسب مئوية تدعم أطروحة بقاء الكتاب

عند استقراء البيانات والدراسات الإحصائية المتعلقة بسوق النشر وعادات القراءة عربياً وعالمياً، تتضح مفارقة لافتة تؤكد أن الضجيج الرقمي لم يُلغِ مركزية الكتاب، بل عزز الحاجة إليه بوصفه الوعاء الأكثر موثوقية واستدامة:

- هيمنة سوق الكتاب الورقي عربياً: تشير تقديرات دراسات صناعة النشر إلى أن إجمالي حجم سوق النشر في العالم العربي يبلغ نحو 13.4 مليار دولار، في حين لا يشغل النشر الإلكتروني سوى نحو 791 مليون دولار فقط (أي ما يعادل قرابة 5.9% من إجمالي السوق)، مما يثبت أن الكتاب المطبوع لا يزال يستحوذ على الحصة الكبرى من الثقة والطلب المعرفي(4).
- تفضيل القراء للوعاء الورقي على الرقمي: تكشف الدراسات المقارنة لأنماط التلقي أن نحو 37% من البالغين يقتصرون في قراءاتهم الجادة على الكتب الورقية وحدها، مقابل 7% فقط يقتصرون على القراءة الرقمية الخالصة، بينما يمزج الباقون بين الوسيلتين مع تفضيل الورق في الدراسات الأكاديمية والبحوث المعمّقة(5).
- الرسوخ المعرفي والذاكرة الصورية: أثبتت أبحاث علم النفس المعرفي أن القراءة من الكتاب الورقي تعزز «الذاكرة الصورية» والاستيعاب العميق مقارنة بالشاشات؛ لأن الدماغ يتعامل مع الصفحات المطبوعة كخريطة مكانية ثابتة تسهل استرجاع المعلومات منها، بخلاف التمرير الرقمي المستمر(6).

- فجوة المقروئية العربية والحاجة إلى التوثيق: في ظل تقارير دولية (مثل تقارير اليونيسكو ومؤسسة الفكر العربي) تشير إلى تراجع معدلات القراءة الحرة في العالم العربي بسبب طغيان الترفيه الرقمي السريع[7]، يصبح إخراج كتاب رصين بمثابة «إيداع في بنك الذاكرة الثقافية»؛ إذ يظل متاحاً في المكتبات ومعارض الكتب وقواعد البيانات لعقود، خلافاً لمنشور رقمي يختفي من واجهة التفاعل خلال 24 ساعة بفعل الخوارزميات.

خامساً: معادلة الكتاب في مواجهة المنابر (الأثر الباقي مقابل الصدى العابر)

إن المقولة التي ترى أن «إخراج الباحث أو الأديب كتاباً خير له من جمع جمهور ينصرف بعد الحضور إلى غير رجعة» تلامس جوهر فلسفة الإنتاج المعرفي؛ فالتاريخ الثقافي والعلمي لا يحفظ الخطب المرتجلة ولا أمسيات المجاملات، بل يحفظ النص المكتوب والموثق.

- 1. الكتاب كوعاء للخلود المعرفي: الكتاب هو المنجز الحقيقي الذي يختبر متانة فكرة الباحث، ويضطره إلى التمحيص والتدقيق والتوثيق العلمي. وهو الذي يظل مرجعاً للأجيال اللاحقة بعد أن تنفضّ المجالس وتُطوى صفحات التواصل.
- 2. الكتابة الكثيفة والرصينة: المنابر —واقعية كانت أم رقمية— تميل بطبيعتها إلى الخطابة والتبسيط وإرضاء ذائقة المستمع العجول، بينما يتيح الكتاب للباحث بناء نسق فكري متكامل، وتقديم إضافات نوعية تُحتسب في رصيده العلمي والأدبي.

- 3. خطورة استهلاك الباحث في المنابر: كثير من المواهب البحثية والأدبية احترقت في أتون المحاضرات والندوات والظهور الإعلامي، فانتهى بها المطاف وقد استنفدت طاقتها الإبداعية في «الكلام الشفهي» دون أن تترك «أثراً مكتوباً» يُرجع إليه أو يُبنى عليه.

سادساً: الرؤية التركيبية —— كيف يوازن الباحث المجتهد؟

لا ينبغي النظر إلى هذه المسارات الثلاثة بوصفها متناقضات يُلغي أحدها الآخر، بل يمكن توظيفها بذكاء وفق أولويات الباحث الفرد واستراتيجية استثمار الوقت:

- الكتاب هو الأصل والمركز: يجب أن يظل التأليف والبحث الرصين هو المشروع الأساس الذي تُكرَّس له زبدة الوقت والجهد، لأنه الرصيد الحقيقي والباقي الذي يخلّد اسم صاحبه.
- المنصات الرقمية كأداة نشر وتسويق للفكرة: تُستثمر التطبيقات عن بُعد ومواقع التواصل ك «رافعة» للتعريف بمضامين الكتب والأبحاث، وفتح نوافذ نقاش حولها، وتحويل الجمهور الرقمي الواسع إلى قراء جادين يقتنون الكتاب ويقرؤونه.
- الانتقائية في المنابر الواقعية: بدلاً من استنزاف الذات في تأسيس وإدارة منابر فردية مرهقة، يكتفي الباحث بتلبية الدعوات النوعية التي تجمعه بنخبة حقيقية تضيف إلى تجربته، أو يكتفي بلقاءات دورية متباعدة ذات طابع حواري عميق بعيداً عن الاستعراض الاجتماعي.

إن الواقع يثبت أن الجمهور الذي يصفق في القاعات أو يضغط على أزرار الإعجاب في الشاشات سرعان ما يمضي في شأنه، ولا يبقى في ساحة الفكر والأدب إلا الفكرة المتقنة التي أُودعت في كتاب نافع.

الهوامش والمصادر والمراجع:

(1) يُنظر في تحليل التحولات الرقمية وأثرها في الإنتاج الأدبي والعلمي: دراسات النشر الرقمي والتفاعلي المعاصر، وتقارير اتحاد الناشرين العرب حول تحديات النشر الفردي والمؤسسي (2025–2026).

(2) استطلاع «اتجاهات البودكاست» الصادر عن منصة ديسكوفر بودز (Discover Pods)، منشور في تقرير: «بين الريلز والبودكاست.. هل انقرضت القراءة؟»، شبكة الجزيرة نت، قسم الثقافة، 9 أغسطس 2024م.

(3) دراسة أكاديمية محكّمة بعنوان: «شبكات التواصل الاجتماعي: دلالات التأثير على المقروئية لدى الطالب الجامعي»، مجلة دراسات المعلومات والتكنولوجيا (Cybrarians Journal)، العدد 14.

(4) بيانات إحصائية مستخلصة من دراسة حول واقع سوق النشر العربي والغربي، منشورة في مقال: «الكتاب الورقي يربح المعركة والإلكتروني يتعثر»، مؤسسة سلطان بن علي العويس الثقافية، 20 سبتمبر 2026م.

(5) تقرير إحصائي بعنوان: «الكتاب الورقي بين مواجهة التحول الرقمي ومستقبل القراءة»، وكالة الأنباء الليبية (وال) – القسم الثقافي، نقلاً عن دراسات مسحية لأنماط القراءة لدى البالغين، يناير 2026م.

(6) أطروحة في علم النفس المعرفي حول أثر الوسيط الورقي في ترسيخ الذاكرة الصورية والاستيعاب، مشار إليها في تقرير: «اليوم العالمي للكتاب.. دعوات عربية حثيثة للعودة إلى القراءة»، شبكة الجزيرة نت.

(7) تقارير منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة (اليونيسكو) والتقرير العربي للتنمية الثقافية الصادر عن مؤسسة الفكر العربي حول مؤشرات القراءة وتحديات الترفيه الرقمي في الوطن العربي.

ذاتية الباحث

د. ريمه عبد الإله الخاني

omferas@gmail.com

عميد كلية اللغة العربية في جامعة الحكمة الافتراضية وفروعها.

محاضر لغة عربية في معهد الفجر الأزهري

عضو الاتحاد الدولي للغة العربية.

عضو اللجنة العلمية لمجلة سيبوية الماليزية..

Head of the Faculty of Arabic Language at Al-Hikma Virtual University and its branches.

Lecturer of Arabic Language at Al-Fajr Al-Azhari Institute.
Member of the International Arabic Language Union.
Member of the Scientific Committee of the Malaysian Sibawayh

عضو الاتحاد الدولي للغات والترجمة

عضو لجنة التحكيم لمجلة استيعاب المحكمة الجزائرية

عضو لجنة تحكيم البحوث في مجلة تكامل المحكمة الجزائرية

Member of the International Federation of Languages and Translation

Member of the refereeing committee for the Journal of Comprehensive Studies, Algeria

Member of the research refereeing committee for the Algerian Journal of Integration

تشارك في مؤتمرات اللغة العربية عربيا وعالميا

لديها أكثر من 35 كتابا مطبوعا وأكثر من 50 30 كتابا إلكترونيا و50بحثا مهما، وكتب عديدة إلكترونية.

وموقع إلكتروني أدبي: فرسان الثقافة

She participates in language conferences. She has more than 35 published books, more than 50 important research papers, and numerous e-books. She also maintains a literary website.